الجهاد في الإسلام

بين الطلب والدفاع

تأليف

صالح اللحيدان

يُطلب من مكتبة الحرمين بالرياض

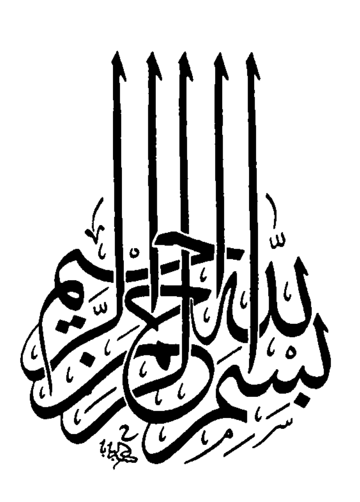
صالح اللحيدان

الجهاد في الإسلام

بين الطلب والدفاع

يُطلب من مكتبة الحرمين بالرياض
وفروعها في المملكة - هاتف/ ٤١٢١٩٤٩
ص.ب ٢٥٥٩٠ الرياض/ ١١٤٧٦

الطبعة الرابعة
١٤٠٧ - ١٤٠٨هـ



بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. أما بعد:ـ

فهذه الطبعة الرابعة من كتاب الجهاد في الإسلام بين الطلب والدفاع رأيت اعادة طباعته بعد نفاذ الثالثة وما رأيته من لازم الاضافة والحذف الذي لا يخل بشيء كنت قد رأيته، وما كنت قد أثبت في الطبعات السابقة في المقدمة فإنه هو هو لم نر حاجة إلى تغيره إذ قلنا:

. . «فإن فريضة من فرائض الإسلام لم تلق مثل ما لقيت فريضة الجهاد في دين الإسلام من طعنٍ وأخذ ورد وذلك من أجلِ الوصول إلى الطعن في الدينِ وتقويض أركانه وهدم بنيانه وجعله كأى مذهب آخر من مذاهب الأرض الوضعية التي صاغها بشر يختلفون. . . ولقد ذهبوا في هذا إلى القول بأن الجهاد لم ينتشر إلا بالسيف وأنه مقصود به الدفاع فقط ولم يقصد به غير ذلك من أنواع الحروب. وقد استطاع خصوم الإسلام قي قليل من السنين أن يوجدوا بيننا من جهال المسلمين من يقـول بقـولهم وينـادى بها ينادون به من تَزوير وتضليل وهؤلاءِ وأولئك يشكلون خطراً رهيباً لا على مسألة الجهاد فحسب وإنما على الدين كله وذلك لكى تقوم مملكة الإلحاد ويسود الظلم ويعود الطغيان ولقد برهن على هذا غلام أحمد القادياني والقاديانيون على السواء بأن سعوا إلى تعطيل الجهاد أصلاً ذهاباً منه إلى إيجاد الإلحاد والجهل بين الناس ليمكن بعد ذلك تربعه وأترابه على عرش الحياة الدنيا فقد أعلن هذا الرجل عام ١٩٠٣م أنه نبي مرسل يوحى إليه ويتلقى التعاليم من الله وأصدر رسالته «تحفه الندوة» قال فيها هذا المعنى «كلما ذكرت مراراً

أن هذا الكلام الذي تلوه هو كلام الله بطريق القطع واليقين كالقرآن والتوراة، وأنا نبى من أنبياءِ الله. وتجب على كل مسلم طاعتى في الأمور الدينية، ويجب على كل مسلم أن يؤمن بأنى المسيح الموعود، وكل من بلغته دعوتى ولم يؤمن بي ولم يحكمنى ولم يؤمن بأنى المسيح الموعود، ولم يؤمن بأن الوحى الذي ينزل عليَّ من الله، مسئول ومحاسب في السماءِ وإن كان مسلمًا، لأنه قد رفض الأمر الذي وجب عليه».

ويقول أيضاً مثبتاً صدق دعواه، وأنه النبى الموعود الذي يكفر من يعصيه ويخرج من الإسلام... «وقد شهد القرآن وشهد الرسول وعين الأنبياءِ زمان بعثتي».. ثم بعد هذا الهرَاءَ الذي لا طائل تحته ويُحسد عليه، يدعى أنه أوحي إليه الجهاد، وأن الجهاد باطل من أساسه وأنه يجب على كل إنسان أن يرفض ذلك رفضا باتاً، وأنه يجب عليه الولاءَ والطاعة للمستعمرين لأنهم في هذه الحياة كل شيءٍ يقول في كتابه: «ترياق القلوب».. «لقد قضيت معظم عمرى في تأييد الحكومة الاستعمارية ونصرتها وقد ألفت في منع الجهاد ووجوب طاعة ولى الأمر: «الاستعمار» من الكتب والمجلات والنشرات مالو جمع بعضها إلى بعض لملأ خمسين خزانة، وقد نشرت هذه الكتب في البلاد العربية.. وكان هدفى أن يصبح المسلمون مخلصين للاستعمار طائعين له».. اهـ

ولقد سعى في الآونة الأخيرة كثير من المبشرين لنشر هذا الكلام ووافقهم في هذا الدور الكثير ممن يرون إزالة الجهاد وذلك لأن هذه الفريضة تهز قلوبهم وتزلزل أماكنهم وهذا يجر بالتالى إلى تعطيل هذه المسألة وزعزعة صلاحيتها في العصر الحاضر.. ولعل نخبة أخرى من هذا الصنف ترفقت مكراً وقالت بل الجهاد في الإسلام فريضة ولكنه على كل حال لا يعنى إلا الدفاع ولا مزيد.. ويتضح مما سبق ونسوقه الآن أن الإسلام والجهاد منه بصفة خاصة قد لقى الشر على أيدى ممن يدعى الإسلام في هذا القرن.. ونحن ما نزال مع غلام أحمد القاديانى

الذي بقية أَفكاره التي يمثلها اليوم أكثر الباحثين بأَساليب مختلفة يقول في رسالة خاصة. . «لقد ظللت منذ حداثة سنى، وقد ناهزت اليوم الستين، أُجاهد بلسانى وقلمى لأَصرف قلوب المسلمين إلى الإخلاص للاستعمار والنصح له. . ».

تلك هى الرسالة التي عبرت بحق الولاء الكبير لحكومة الاستعمار إن هذا العمل من غلام أحمد وأَتباعه، ومن الاستعمار ثانياً، ومن بعض مبشرى العرب ثالثاً، يشكل أَكبر دور عرف في تاريخ الإسلام قاصداً هدم العمل الإسلامي بمختلف أَنواعه، إن الكثير من الذين كتبوا عن التاريخ أَمثال. . أرنولد تونبى. . وفيشر. . وكولن ولسون. . وسنجر. . ولويس جوتشلك. . وبرو كلمان. . وغوستاف لوبون» وبالتالى أَمثال. . فيليب حتى. . زيدان. وقسطنطين زريق. والحصرى. . وعبد الرحمن الشرقاوى لايقصر دورهم عن ذلك الدور الذي يقوم به الاستعمار والتبشير ممثلاً في. . التاريخ، والأَدب. . واللغة. . والعلم. . والقصة. .

لقد سعى البشر منذ قرابة ثلاثة قرون تقريباً إلى هدم قوة الإسلام وتعطيل معطياته. . ، ولقد تفرق المبشرون إلى القول في الجهاد خاصة بأنه قهر واستعمار. . يقول المودودى مصوراً موقف الخصوم من فريضة الجهاد في الإسلام. . «لقد جرت عادة الإفرنج أن يعبروا عن كلمة الجهاد بالحرب المقدسة إذا أَرادوا ترجمتها بلغاتهم وقد فسروها تفسيراً منكراً، وتفننوا فيه والبسوها ثوباً فضفاضاً من المعانى المموهة الملفقة؛ وقد بلغ الأَمر في ذلك أن أَصبحت كلمة الجهاد عبارة عن شراسة الطبع، والخلق، والهمجية، وسفك الدماء، وقد كان من لباقتهم وسحر بيانهم وتشويههم لوجوه الحقائق الناصعة أنه كلما قرع سمع الناس صوت هذه الكلمة «الجهاد» تمثلت أَمام أَعينهم صورة مواكب من

المحتشدة مصلة سيوفها متعددة صورها بنار التعصب والغصب متطايراً من عيونها شرر الفتك والنهب[1].

ولعلك تجد مثل هذا الوصف الجيد عند عزيز عطية سوريال وتوفيق الحكيم وهذا الأخير يعُرض أكثر من أن يصرح، وتجد هذا بلباقة فائقة قل أن تبين في أبحاث الكثير من أعداء هذا الدين.

والحق أن الإسلام يُعانى اليوم خطراً كبيراً يندر أن يكون لمثل هذا اليـوم شبيـه فيما مضى من دهور. ولعل مصيبة القوم في هذا الحين العصيب أن من المسلمين أنفسهم من كان عوناً لخصوم هذا الدين عن طريق مباشر وغير مباشر.. وهذا من ثم نذير بوابل من العذاب أراه قريباً، اعتباراً بما ورد في القرآن وما كان في شتى العصور المتعاقبة التى ظلم أهلهـا، وهـذا ما يقوله القرآن إذ يقول: «ظهر الفساد في البر والبحـر بما كسبت أيدي الناس».. ويقول: «وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعُم الله فأذاقها الله لباسَ الجوعِ والخوفِ بما كانوا يَصْنعون».

ونحن مجمـوعـة قُرى، والفساد الفكرى، والقلق النفسى، وعدم الإتزان، وتضييع الحق، والترف والزائد.. كل هذا حدث ولا لوم..

إننا ومادام الأمر كذلك فنحن نحتاج إلى كثير من الوعي والإدراك إذ لم نجهـل بعـد ولم يحل بيننا وبين الإسلام.. إن كثيراً من الذين يلتمسـون أسباب هزيمة المسلمين عن طرق معوجة، ويبررون هذا بأدلة واهية ينظرون إلى تشاريع هذا الدين نظرة الخصم لانظرة الناصح الأمين.. وهم يجهلون كون الدائرة عليهم إن خصوم الإسلام الذين مابـرحوا يشوهون فريضة هذا الدين التى قال عنها رسول الله ﷺ:

---

(١) رسالة الجهاد: ص ٦.

«وذروة سنامه الجهاد» . . أى ذروة سنام الإسلام . . إن هؤلاءَ الخصوم الذين قدحوا في هذه الفريضة قد أوقفوا أنفسهم وهم يعلمون أولا يعلمون في مرتع وخيمٍ إذ قد فشل هؤلاءِ في مسارهم ذلك تجاه تشويه الجهاد والقول بأنه دفاع وكفى . . إن تشويه الجهاد يؤدى إلى نبذه وبالتالى إبعاده عن . . الحياة . . وهذا وذاك يؤديان إلى تعطيله وهو من شراع الإسلام . . وإذا تعطلت هذه الفريضة فهذا يعنى أيضاً هدم الدين . . وهذا ولاجرم هو الذى يسعى إليه الخصوم . . إننا أمام هذا السيل الجارف الذي انصب علينا في أسرع وقت لانحتاج إلى أكثر من أن نكون على صلة دائمة بالله، صلة قوية البنيان . . ومن ثم إدراك مايراد بنا إذ القوم يعللون قولهم ببطلان الجهاد أنه مضي وقته ولم يعد الأمر محتاجاً إلى جهاد، وهذا القول منهم وإن كانوا أدرى في واقع الحال من كثير منا يعطى صورة تمثل حرصهم على هدم الدين بتعطيل أركانه . . إننا نقف اليوم في بحوثنا ودراساتنا لنصحح المفاهيم، ونعالج الأفكار ليدرك العالم أننا نقصد بالجهاد حرية الإنسان ليعبد الله على علم ولكى نُنقذ هذه البشرية من الفشل والضياع وقبل ذلك عبادة غير الله،

إننا يجب أن نبين نوعية الجهاد في الاسلام جاعلين الرأى والميل في جانب . . والحق في جانب آخر ليُفهم كل مُراد . .

ويعلمُ الله لقد كان هذا البحث ثمرةَ اطلاعٍ وثمرةَ عرضٍ وموازنةٍ ودراسة . . ولعل نفسى فيه غير قانعة بوفائه بيد أنى أرجو الله أن أكون قد دونت الحقيقة في هذه الصفحات المعدودات لقد بدأت بكتابة تعريف الجهاد ومضيت في هذا إلى ذكر أنواع الجهاد ثم تلا ذلك الحديث عن تاريخ الجهاد . . كذلك الجهاد في الديانات السابقة قبل الاسلام حيث كان القول هنا فيه شئٌ من التدقيق المختصر . . ثم بعد هذا كان الحديث عن الجهاد في الاسلام . . وكان من الطبيعى أن تأتى بعد هذا الحديث بالحديث عن المراحل التى مر بها الجهاد في الاسلام

حيث مر وتدرج من مرحلة أكبر منها حتى وصل إلى المرتبة التي استقر عليها فهم المقصود من الجهاد ثم بعد هذا كان الحديث عن شروط وجوبُ الجهاد ليتبين لنا أهلُ الجهادِ من المسلمين وأوردنا الشروط مع بيانه ما تقتضيه وكان الحديث بعد ذلك عن فضل الجهاد في سبيل الله ثم كان لزاماً بعد ذلك أن يأتي دور الحديث عن الاستعداد. . وقد تناولنا في هذا شيئاً واجباً مما يلزم أن يكون في الجهاد وبتعرف في المجاهدين. وبعد هذا. . تناول البحث. . طبيعة الجهاد في الإسلام.

ولقد تكملنا هنا كلاماً طويلاً بالنسبة لغيره محاولين إبراز الصورة الحقيقية. . والحق أن هذه المسألة تحتاج إلى دراسة مستقلة إذ هي من الأهمية بمكان. . ونحن في بحث هذه النقطة قد استوفينا أغلب الجوانب وأتينا عليها من جهاتها التي أمكننا المرجع منه أن ندلى بما فيه من قول راجح سديد إنشاء الله تعالى.

ولعل هذا الأمر له صلة قوية بأعداءَ الاسلام حيث أثاروا حولها زوبعة من الأوهام والتلبيسات والذي قبح من هؤلاءِ هو تركيزهم الخبيث على أن الجهاد يُقصد به. . الدفاع. . مُعللين ذلك بأن هذا الدين. . دين تسامح وتعاطف وأنه لا إكراه في الدين. . ولقد أنطوت هذه الفرية على كثير من مؤرخى المسلمين في العصر الحديث. . ثم بعد هذا كله كان الحديث عن حكم الجهاد في الإسلام وقد تكلمنا عن حكم الجهاد خاصة في هذا العصر وكانت الخاتمة مع ما يحتويه البحث من زوائد وإشارات. . والبحث قد يكون بداية لدراسة طويلة تحتاج سعة صدر وطول بال».

تحرر في ١٤٠٧/٢/٣هـ
عشاءً

صالح بن سعد اللحيدان

تعــريف الجهــاد

الأَصـل الإشتقـاقى لمادة هذه الكلمة «جهاد» يرجع إلى المشقة.. فيُقـال جهـدت نفسى وأَجهـدت، والجهـد طاقـة.. قال الله تعالى: ﴿والذين لا يجدون إلا جهدهم﴾.[1]

وقال صاحب القاموس: الجهد: الطاقة والمشقة، وجهد جهدك أَبلغ غايتك.[2]

وقال في المعُرب: الجهاد: مصدر جاهدت العدو جهادا إذا قاتلته أَو بذل كل منهما جهده أَى طاقته في دفع صاحبه، فهى صيغة مشاركة من الجهد وهو الطاقة والمشقة.

وقـال في مفردات القرآن: والجهاد والمجاهدة: استفراغ الوسع في مدافعـة العـدو، وتستعمل هذه الكلمة أعنى كلمة: جهاد: بمعناها اللغوى الأَعم[3].

وقـد وقفنـا في بحث هذه الكلمـة على كثير من مراجـع اللغـة والقواميس والمفردات، وما ورد يُعطى الكثير من مفهوم اشتقاق كلمة جهاد من حيث معناها اللغوى ولا طائل البتة تحت ماذكره أَئمة هذا الفن في تفريع وتفرق الاشتقاق إذ المقصود فهم القليل الذي يدل على الكثير ولا مزيد.

وهذا التعريـف هو ما ذكره علماءُ اللغة وأَما كتب الفقه الإسلامى فقد كثر فيها تعريـف: الجهاد: واشتقاق كلمته وهم في هذا الاختلاف يكـادون يتفقون على وجه التقريب على غايته في حياة المسلمين عبر

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ٤٨٦ ـ ١

(٢) ٢٨٦ ـ ١

(٣) آثار الحرب في الفقه الإسلامي ص ٣٢.

القـرون والجهاد حسب قول الذين ناقشوه وعرفوه للناس في القديم والحديث أنواع كثيرة يتفرع عن كل نوع منها مالا يحصى كالذى ذكره ابن القيم في الهدى النبوى ولا بد قبل عرض تعريف الفقهاءَ للجهاد من أن نسوق هذا التقسيم الجيد لنقف على وجه جيد نحتاج إليه في مواطن مع النفس والأسرة والمجتمع من أجل أن نكون على علم أكيد بما في الجهاد من أسرار تتبين من خلال عرض ما ذكر في الهدى للإمام ابن القيم ـ يقول:

ـ «ألجهاد على أربع مراتب: جهاد النفس: وجهاد الشيطان وجهاد الكفار: وجهاد المنافقين!..».

ثم بدأ يفصل في ذلك بطريقته البارعة وتفريعاته الحسنة ـ يقول عن: جهاد النفس.

«فالجهاد بالنفس أربع مراتب.

١ ـ أن يجاهدها على تعلم الهدى، ودين الحق الذي لافلاح لها ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به، ومتى فاتها علمه شقيت في الدارين.

٢ ـ أن يجاهدها على العمل به علمه وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها.

٣ ـ أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات؛ ولا ينفعه علمه ولا ينجيه من عذاب الله.

٤ ـ أن يجاهـدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخلق ويتحمل ذلك كله، فاذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى

ربانياً حتى يعرف الحق، ويعمل به، فمن علم، وعلّم وعمل فذاك يُدعى عظيما في ملكوت السموات..

ثم دخل في إيضاح طريقة جهاد الشيطان فقال:
«وأما جهاد الشيطان فمرتبتان:

١ ـ إحداهما: جهاده على دفع ما يلقى العبد من قبل الشيطان من الشبهات والشكوك القادحة في الايمان.
٢ ـ الثانية: جهاد على دفع ما يلقى إليه من الإرادات والشهوات والأوهام والشبهات.

فالجهاد الأول يكون بعده اليقين، والثاني بعده الصبر قال تعالى: ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾. ثم بدأ بجهاد الكفار والمنافقين وهؤلاء خطرهم شديد وهم من أجل ذلك يحاولون التلبس بلباس المسلمين..

والمنافقون أخطر شيء على المسلمين والدعوة إلى الله، ولهم طرق عجيبة ومزايا غريبة أوقعوا غيرهم من المؤمنين في شر مستطير ـ يقول:

ـ «وأما جهاد الكفار والمنافقين فعلى مراتب: بالقلب واللسان والمال والنفس.. وجهاد الكفار أخص باليد وجهاد المنافقين أخص باللسان»[1].

ولعل الحال تبين لنا أشياء كثيرة من أنواع الجهاد لا سيما ونحن نعاصر أقواماً يصعب على المسلم تبيين حالهم في كل الصور فأنواع الجهاد إزاء ذلك كله يكون هناك جهاد ضد الكفر.. وجهاد ضد

(١) زاد المعاد ج ٢ : ص ٤٥ وما بعدها. وهذا كتاب جدير بالقراءة ويحسن عنصرته وتقسيمه وإخراج أحاديثه.

الرذائل. . وجهاد ضد المغريات من المال وجهاد ضد الباطل. . وجهاد ضد الفساد والميل إلى الملذات. . وجهاد ضد مذاهب الأرض بمختلف أشكالها في أى مكان.

تعريف الفقهاءِ للجهاد:

كان لابد لنا من عرض ماجاء في زاد المعاد إذ الحاجة ماسة إليه جداً وإلا فالأولى عدم إيراد ذلك لترتيب نقاط البحث شيئاً فشيئاً لتحسن الفائدة منه وهو مع ذلك كذلك.

تعريف. . المالكية والشافعية. . تعريفهم على العموم يدور على أنه قتال الكفار حتى يسلموا.

تعريف الحنفية. . الجهاد غلب في عرف الشرع على جهاد الكفار وهو دعوتهم إلى الدين الإسلامى إن لم يقبلوا.

تعريف الحنابلة: يقولون هو مصدر جاهد جهاداً ومجاهدة من جهد إذا بالغ في قتل عدوه.

وأما شرعاً: فهو قتال الكفار على وجه الخصوص.

وتعريف غيرهم. . أن الجهاد طلب العدو وقتاله حتى يُسلم وينقاد للحق ويؤمن بالله ورسوله [١].

ومن هذه التعاريف يظهر لنا: أن المعنى اللغوى يشترك مع المعنى الاصطلاحى في بذل الوسع والطاقة وبذل الجهد والاصطلاح لكلمة. .

---

(١) يمكن العودة في هذا إلى: المحلى. . لابن حزم، والمبسوط. . للسَّرَخْسىَ، والمجموع. . للنواوي، والمقي. . لابن قدامة والحاشية. . لابن عابدين.

الجهـاد. . يعـرف بأنـه بذل الوسع في نصره الدين الاسلامى لا غير وحفظه إما بالدعوة وتوضيح الحق وبعد ذلك يكون السيف ولا كلام ومن خلال عرض المعنى اللغـوى والاصطلاحي لكلمة. . الجهاد. . يتبين لنا أن اللغة أوسع تعريف من الاصطلاح وأشمل في دائرة الموازنة بينهما على كل حال. . [1]

(١) وكما سلف القول فإن معقد الأمر هنا وهناك في كلا التعريفين اللغوى والاصطلاحي هو: أن يكون الدين «لله».

تاريخ الجهاد

المتتبع لسير الأولين في الديانات السابقة يجد أن الجهاد قد سار في ركابها وعاش معها متنقلاً من طور إلى آخر والجهاد في تلك الحقب من التاريخ الموغل في القدم كان بين الحق والباطل. . وكان يصور مدى قوة الحق مع صغره ظاهراً أمام الباطل. . ونتيجة الموقف في كل معترك تكون ولا جرم للحق على الباطل. . وقد صور القرآن ذلك في سورة هود. . وصور واقع الحال في مختلف الأزمنة فوقعه بدر. . والأحزاب من الأدلة على ظهور الحق ولو كان هناك بعض الطول. .

لقد سار الجهاد مع الإنسان. . وسار الإنسان مع الجهاد والحياة بطولها تعيش على الجهاد مادام هناك آلهة تعبد من دون الله مهما كان نوع المعبود المتخذ من دون الله. . . وفي ما يقوله القرآن هنا شهادة أكبر على وجود الجهاد في بنى الإنسان منذ أقدم الأزمان[١]. .

يقول تعالى. . ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز﴾.[٢]

وكذا قوله تبارك وتعالى في شأن موسى عليه السلام «ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين. قالوا ياموسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون: قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فانكم غالبون: وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين: قالوا ياموسى إنا لن ندخلها

(١) الشيوعية تنادى العالم أن الجهاد لم يكن موجودا إلا في الإسلام ويحسن مُراجعة كتب السيرة.

(٢) سورة الحج آية ٤٠.

ماداموا فيها فاذهب أَنت وربك فقاتلا إنا هٰهنا قاعدون: قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين: قال فإنها محرمة عليهم أَربعين سنة يتيهون في الأَرض فلا تأْس على القوم الفاسقين»[1].

وكذا قوله عز وجل.. ﴿فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر، فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلاً منهم، فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون أَنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين: ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين: فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأَرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾.[2]

هذا شيء مما ورد في القرآن عن الجهاد بين الحق والباطل ولم يسعنا أَن ننقل شيئاً مما كتب في العصر الحديث خاصة كتاب التاريخ في أَوربا وبعض مؤرخي العرب لأَنني لا أَثق به لاسيما وقد كتبه أُناس مشكوك فيهم.. كذلك لم ننقل من بعض كتب التاريخ التي ذكرت شيئا من ذلك ودونته أوطالت فيه لأَن أَغلب ما جاءَ فيها ينقصه الدليل.

من أَجل ذلك كنا معتمدين على ماورد في القرآن الكريم لأَنه الكتاب الذي يُعتمد عليه في القليل والكثير.. وهو في الحقيقة قد ذكر ما فيه الكفاية ويكفي ولو أَنه لم يشر إلا إلى القليل..

---

(١) سورة المائدة آية ٢٠ ـ ٢٦.

(٢) سورة البقرة آية ٢٤٩ ـ ٢٥١.

إن الجهاد في التاريخ له دوره المرموق.. ولو سار المؤرخ والباحث ينقب عن تاريخ الجهاد في أزمنة الخلق الغابرة لراعه ذكر التاريخ للجهاد في ذلك الزمن البعيد.. والذي يمكن أن نقول بصدقه عن الجهاد ما وقع في ديار الهند والفرس واليونان وبلاد الروم والعرب كذلك.. أما العرب فقد دون عنهم الشيء الكثير وذلك يعطى صورة حية على وجود الجهاد في بلاد العرب قبل الإسلام.

ونتيجة الوقوف على معرفة الجهاد في التاريخ أخذ العبرة والدرس في الهزيمة والانتصار ومعطيات التصرف ورد الكيد وكبح العدوان وإدراك الخطط في حركات الجهاد عن الأقوام المتقدمين والحكمة التي من أجلها جاهد الإنسان في كل زمن وحين.. وموضع الاستفادة هنا أكيدة فإن خبرة الماضى تفيد الحاضر.. وهى بالتالى شبه ضرورية لنفع المتأخرين من المتقدمين.. والجهاد إذا كان لغاية يكون درسا مفيدا لكل مستفيد.. وآية ذلك جهاد الصحابة.. كيف كان؟ ولمن كان؟ وبأى شيء كان؟.. والاستفادة وتلقى الدرس منهم يقدم على كل مقدم على تجرم القرون الطوال.

وموضع الاستفادة إدراك حقيقة الذّى كان في القرون الغابرة حيث مدار الحروب بين أمة وأمة وقوم وقوم كل هذا يعطى أنه لا معنى لما كان من الحروب أو قل الجهاد ذلك أنه لم ينطلق من منطلق صدق وحق بل لعل انطلاقه كان لنزعة قبلية أو عرقية أو اقليمية من أجل ذلك كان المنتصر يعود بالخسران المُبين إذ أنه لم يحقق شيئاً إلَّا لذاته فقط وهل للحياة معنى إذا كان ما يكون منها إلا للذات دون سواها لاجرم فإن استفادة المستفيد هنا تكمن في حقيقة الجهاد إذا كان لمبدأ عظيم لا لشيء سواه وهذا ما كان في زمن الرسول ﷺ وصحبه الكرام.

لقد كان المبدأ وكما أشرنا في كتابنا. «حال المتهم في مجلس القضاء».

هو: أن تكون «لا إله إلا الله محمد رسول الله». منهج حياة كاملة حيث الحياة الايمانية الحية المنطلقة من وحي لا يتغير وحيث تسود حقيقة مايراد من السلم في الحيـاة وبعد الممات. وحيث يستفيد الناس مما كان.. وكيف كان.. ولما كان وحقيقة النطق هنا مما يمكن تدوينه عبرة للأجيال المسلمة أبد الدهر أن الله جل جلاله قد قال: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي إرتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً﴾.

وتحليل واقع الفترة المباركة في الأزمنة الأربعة خلال خلافة الخلفاء ومعهم بعدهم عمر بن عبد العزيز تحليل تلك الفترة يعطى دون جدل كيف كان القوم وأنهم نهجوا نهج النبوة تطبيقاً لكى لا يعبد إلا الله ولما كان هذا هو.. مبـدأ.. أهل تلك الحقيقة كان واقع الحال كما قال سبحانه وتعالى. ﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز﴾.

وجميل في تلك الأحايين بروز الفهم الجيد حتى لصغار السن وكيف أن حقيقة الجهاد وسببه وغايته مدركة دون نكير.

هذا إذاً موضع الاستفادة للأجيال أبداً نهج نبوي تربية صادقة فهم صحيح لمضمون كلمة «التوحيد». وبهذا يكون الجهاد مدرك الحقيقة على كل حال يكون فيها المسلم.

الجهـــاد في الديانات السماوية

كان الجهاد في الديانات السماوية يتسم بنوع من العنف والشدة. . وقد يستوحش قارىء كتب الأديان السابقة عندما يقرأ نصوص الجهاد التي تأمر بتحريق البلاد وإبادتها وقتل النساء والأطفال والشيوخ الكبار. . .

ولقد يذهب العجب بالقارىء العادى لمثل هذه النصوص أن مثل هذا الجهاد كان موجوداً في تلك الأحقاب ولعل العجب لا يكون أكثر إلا إذا قارن بين الإسلام في أمره بالجهاد وبين ما ورد من أمرٍ في تلك الديانات وإيرادنا للنصوص من الكتب المحرفة يعنى قبح أفعال اليهود الذين حرفوا الكتاب وأخضعوه لما للنفس من رغبات ولا يعنى الإيمان بأن ماذُكر كان حقاً. بل يعنى رسم صورة لما اتسمت به أخلاق أولئك الأقوام من خبثٍ وحبٍ لسفك الدماءِ وهتك الأعراض. .

وهذه نصوص من التوارة والإنجيل مع الاحتراز مما ورد فيهما من كلام. . وهذا يبين لنا طبيعة الجهاد في تلك الديانات. . وطبيعة القتال عندهم. . وكيف كان نوع الجهاد. .

ففى سفر يشوع بعد أن أورد قصة محاصرة يشوع وبنى إسرائيل لمدينة «أريحاء» وتواعدهم أن يهاجموا المدينة عند الهتاف وضرب الأبواب.

جاءَ فيه.

ـ «فهتف الشعب وضربوا الأبواق، وكان حين سمع الشعب صوت البوق أن الشعب هتف هتافاً عظيما فسقط السور في مكانه، وصعد الشعب إلى المدينة كل رجل على وجهه وأخذوا المدينة» أ. هـ[1]

---

(١) الإصحاح السادس. ص ٢٠ و ٢١.

ثم يقول:

- «وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها، إنما الفضة والذهب وآنيه النحاس والحديد اجعلوها في خزانة بيت الرب». .[1]

وجاءَ في الإصحاح الثامن وذلك في قصة حربهم لمملكة. عاى. بعد أريحاءَ. . يقول.

- «فقال الرب ليشوع: لا تخف ولا ترتب. خذ معك جميع رجال الحرب وقم اصعد إلى عاي انظر. . قد دققت بيدك ملك. عاي. . وشعبه ومدينته وأرضه. . فتفعل بعاى وملكها كما فعلت بأريحاءَ وملكها»[2].

ثم يقول :

- «ويكون عند أخذكم المدينة تغرقون المدينة بالنار. كقول الرب تفعلون انظروا قد أوصيتكم».

«ولما رأى يشوع جميع اسرائيل أن الكمين قد أخذ المدينة وأن دخان المدينة قد صعد انثنوا وأضربوا رجال عاى[3]. .

ثم يقول :

«وأحرق يشوع عاى وأجعلها تلاً أبدياً خراباً إلى هذا اليوم. . وملك عاى علقه على الخشبة إلى وقت الماءَ وعند غروب الشمس أمر يشوع فأنزلوا جثته عن الخشبة وأطرحوها عند مدخل باب المدينة»[4].

---

(١) سفر يشوع الإصحاح السادس ص ٢٤.

(٢) سفر يشوع الإصحاح الثامن ص ٢٠.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

هذه بعض فقـرات العهد القديم التي بينت حالة الجهاد في تلك الأحايين الغابرة . .

(وفي العهد الجديد فإن نظرة عميقة إلى أقوال النصارى المنتشرة) .

وفي العهد الجديد فإن نظرة عميقة إلى أقوال النصارى المنتشرة هنا وهناك الزاعمة : أن النصارى دعاة أمنٍ وسلام . . وأنهم مطبقون لما جاءَ في كتبهم التى تقول فيها تقول : «من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر» . نجد أنهم بخلاف ذلك فكثيراً ما نجد كتاب هذا العصر يشنون حرباً عسكرية وفكرية قاصدين من وراءَ ذلك التأثير على المسلمين وهدم أوضاعهم ولعل الكثير من نصارى اليوم الذين يشنون الهجمات على الفكر الإسلامى عن طريق البحوث وما إليها لا يألون جهداً في ذم هذا الدين وإثارة الزوابع حوله كل ذلك من أجل ابعاده عن واقع الحياة ولست أرى ولا غيرى أنهم دعاة سلام كما يدعون ، وهم يقومون لإثارة الفتن والمخاوف في البلاد الاسلامية . . ويتضح هذا أكثر فأكثر عندما نقرأ في كتبهم مثل :

«ولا تظنوا إنى جئت لألقى سلاماً على الأرض بل سيفاً . . . ـ فإنى جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه والبنت ضد أمها والكنة ضد حماتها . . وأعداءَ الإنسان أهل بيته» . . . .[1]

من هذه النصوص يتبين أن الغير ممن ينتسب إلى الأديان السماوية الأخـرى غير الإسـلاميـة أشـد موقفـاً وبطشاً . . والإسلام من ذلك برىء . . وليس بينهما مقارنة إذا قيس ذاك إلى هذا . .

إن الجهاد في . . الديانات يختلف عن الجهاد في الإسلام ومرجع ذلك

---

(١) الإصحاح العاشر .

إلى الأتباع أتباع الرسل عليهم السلام حيث قد حرفوا الكلام وغيروا الأعمال وجعلوها وفق الأهواء. ومصالح النفس. وعلو الكعب في هذه الحياة.. إن الرسل عليهم السلام كان جهادهم الجهاد الحق المطلوب.. من أجل إقرار التوحيد وتثبيت العقيدة وجمع الكلمة وليس في زمن أى رسول من الرسل أى مأخذ في القول أو في العمل.. بيد أن الخطأ العريض جاء من قبل المنحرفين عن الهدى التابعين لهواهم الذين يسيرون وفق الرغبة ولا مزيد.. إن الجهاد في السابق ينقسم إلى أقسام:

- فجهاد الرسل هو الصحيح إذ أنه جاء لإعلاءِ كلمة الله عن طريق الدعوة والهدوء والقوة إن كان ما منها بد.

- وجهاد الأتباع المتمسكين بحقيقة الدين كما أُنزل.
- وجهاد المجتهدين الذين يحاولون إتباع الصواب في الدعوة والجهاد.
- وجهاد أعداءَ الرسل المتلبسين لباس التقوى للوصول إلى ما تشتهيه الأنفس.

ولا جرم بعد هذا نكون قد عرفنا حقيقة الجهاد في السابق قبل الإسلام.. ولا جرم نكون قد أدركنا المراد من الجهاد من خلال المجاهدين وأعمالهم الظاهرة.

والفهم الآخر لمعنى الجهاد عند الرسل عليهم السلام باطل، وما ذهب إليه بعض المفكرين في روسيا وتوشوسلوفاكيا والصين خاصة غير مقبول بل هو مرفوض من أساسه. والذين اتبعوا هذا القول من العرب لا يلتفت إليهم إذ أنهم للأولين يقلدون وحتى ولو لم يكونوا كذلك فإننا لا نعيرهم إهتماماً إلا للرد عليهم ومناقشتهم وإفساح المجال لمريد الحق

أن يتبعه ونكون هنا قد قمنا بجهد في توعية المسلمين ووضع القواعد للباحثين في الأحكام والفرائض وما يتعلق بالإسلام والإيمان والإحسان.

على أن الحقيقة التي يجب الوقوف عليها هنا فيما يتعلق بحقيقة الإيمان تقتضي الإيمان بالرسل وأنهم ساروا على نهج واحد لتحقيق التوحيد أن لا يعبد إلا الله واتخذوا طريق الحكمة والروية في ذلك كله مع اختلاف في سبيل المسار في حياة كل أمة وقرية يكون فيها رسول أو نذير.

وندرك من هذا أن التحريف واضح فيما أوردناه من كلام في بعض الكتب المتقدمة وهذا يعود إلى ما تحمله نفوس أهل الديانات السابقة من غل وحقد، ولاجرم فإن تشريد الأنبياء وقتلهم ومتابعتهم ليعطى صورة واضحة أن احراق القرى وقتل الناس كان من وحي النفس والهوى بسبب انغلاق القلب والعقل عن مراد الرسل عليهم السلام والوقوف على الجدل بين الرسل والأمم يبين هذا دون طائل من القول لا مزيد عليه[1] ولعل النصارى واليهود خلال القرون اكتسبوا صبغة على صبغة وحال على حال فهم اليوم أدرك منهم بالأمس حيث اتخذوا سبيل العلم والمادة للحرب حتى على مبدأ ما يؤمنون به وإلا لكانوا مسلمين[2] وأمر آخر أن الرسل الكرام يصطفيهم الله سبحانه وتعالى ويرعاهم ويصنعهم على عينة فيكونون بهذا[3] قدوة حية للأمانة والأخلاق وحب الخير والرحمة ونهج سبل الحق بحكمة ويقين فمقتضى الإسلام على هذه كمقتضى الإيمان فيما يتعلق في حق رسل الله أن يستسلم الناس في كل أمة لرسولهم وينقادوا بالطاعة ويكون هذا استسلاماً بالتوحيد على ما جاءت به.. الرسل.. ولكن قد كان خلاف هذا هو: الحاصل من خلال استقراء الواقع والنص وحال الاعتبار، وهذا ما يجب إدراكه والوقوف عليه.

(١) سورة: هود.. وطه.. والأنبياء.. ونوح.

(٢) ورد إسم محمد عليه السلام وصفته في بعض الكتب السابقة.

(٣) قال الله تعالى: «الله اعلم حيث يجعل رسالته».

الجهاد في الاسلام

بُعث الرسول ﷺ وله من العمر ما يقارب الأربعين عاماً كما ذكرت ذلك جملة من المؤرخين.. فمكث بمكة يدعو إلى الله تبارك وتعالى ثلاثة عشر سنة، وهو في هذه الأثناءَ يلقى الأذى والعنت الكثير من قريش قبيلتـه وعشـيرتـه، ولاقى أصحابه كذلك الخطر المرير وهم في ذلك صابـرون لا يحركـون ساكناً.. وكانت الايات القرآنية تنزل في هذه الأثناءَ مثل قوله: «فاعف عنهم واصفح». وقوله: «واهجرهم هجراً جميـلاً». وقـولـه: «لست عليهم بمسيـطر» وقـوله: «ادفع بالتى هى أحسن». وكلما زاد عليهم الأذى وتـوسـع المشركون في أذاهم ومدوا إليهم يد الشدة والقوة كانوا رضـي الله عنهم يشكون ذلك إلى رسول الله، ﷺ.. فكان يصبرهم ويعدهم الفرج والنصر القريب.. وكان يتلو عليهم مثل قوله تعالى: ﴿قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزى قوماً بما كانوا يكسبون﴾[1].

فكان هذا منه مهوناً لهم عما هم فيه وعليه مما لا يطاق لولا الإيمان وتمكن ورسوخ العقيدة.. وندر أن جاهر بعض الصحابة بالإسلام مثل أبى ذر ـ وعمر ـ وأبى بكر ـ وصُهيب ـ ومصعب بن عمير ـ وبلال ـ وخباب ـ وحمزة ـ وابن مسعود، ولكن هذه المجاهرة كانت خيراً لهم على كل حال.. ولم يلتفت هؤلاءُ إلى مانالهم. كَلَّا.. بل زادوا توحيداً وصبراً ويقينـاً.. وحبـاً للإسـلام ونبي الإسـلام.. ولم ينظروا حال أقربائهم من المشركين، ولم يعيروهم أى لفت نظر.

أما الرسول ﷺ فكان ينشر دعوته في كل مناسبة.. فقد كان يوافى المـوسم كل عام ويتبع الحجاج في منازلهم، ويدعوهم إلى الله ويُبشر الذين يتبعونه بالفوز والجنة.. وقد بذل وسعه في الدعوة وحرص كل

---

(١) سورة الجاثية آية ١٤.

الحرص على إدخال الناس في الإسلام.. وقد كان يأتى عُكاظ وغيرها من أسواق العرب التى يجتمع فيها كثير من القبائل العربية المختلفة يدعوهم إلى الله عز وجل.. ولقد استمر عليه الصلاة والسلام على ذلك مدة طويلة حرصا منه على إسلام العباد والخروج بهم من جاهليتهم الظلماءَ التي لا تفرق بين حق وباطل.. وكان في هذا يلاقى التعب من قومه والأقربين منه خاصة وكان عمه أبو لهب يلاحقه بين الناس ويمشى معه قاصداً تكذيبه أمام من يدعوهم من العرب خوفاً من أن يسلم بعض العرب ويتابعونه فيكون النصر له عليهم... وقد استمر على دعوته وداوم عليها وهو في ذلك من قوة إلى قوة ومن فوز إلى فوز.. وكذلك أصحابه ما برحوا على ما هم عليه يزدادون علمًا وإيماناً وجلداً وتعلمًا مع الأيام ومع هذا كان الرسول ﷺ موقناً بنصر الله وأظهار دينه وإعلاءِ كلمته مهما قيل ويُقال... وما زال يصبر ويثابر ويدعو ويشتد ويسأل ربه النصر والتمكين والظهور... حتى وفق الله جماعة من الأنصار من الخزرج كانوا يسمعون من حلفائهم «يهود» بأن نبيـاً يُبعث في هذا الزمان فنتبعه ونقتلكم قتل عاد وإرم.. فلما رأى هؤلاءِ الأنصار رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى الإسلام وتأملوا صفته وأحـوالـه وطـريقتـه وما عليه من الهيبة والوقار والجد والعظمة. قال بعضهم لبعض أتعلمون والله ياقوم أن هذا الذي توعدكم به «يهود» فلا يسبقنكم إليه.. فاجتمعوا برسول الله ﷺ وأسلموا. وكانوا ستة نفر، ثم رجعوا إلى المدينة ودعوا فيها إلى الإسلام وكان هؤلاءِ لا يألون جهداً في أنفسهم وأموالهم فداءً للإسلام والدعوة إليه.. فانتشر الإسلام بين الأوس والخزرج ولقد تمكن الإسلام منهم بحمد الله تمكناً كبيراً خاصة عندما علموا من أحوال الرسول ﷺ أنه الذي تذكره «يهود».. وخلال هذا العام كان الإسلام بالمدينة قد أوشك أن يدخل كل بيت من بيت العرب القاطنين بالمدينة ولقد فكر كثير من الذين أحبوا لقاءَ الرسول ﷺ أن يحجُّوا، فحجَّ منهم من العام الذي يلى ذلك العام اثنا عشر رجلاً

منهم أثنان من الأوس والباقى من الخزرج. . وفي مكان أمين حيث لا رؤْية للعين فيه اجتمعوا برسول الله ﷺ، وبايعوه بيعة العقبة الأولى، وذهبوا إلى المدينة كأنشط ما يكون عليهم الرضوان ونشروا هناك الإسلام وأعلنوه بينهم. . وأدخلوا فيه كثيراً من قومهم الذين لم يحظوا بلقاءَ الرسول ﷺ. . ثم جاءَ في العام الذي يليه أكثر من سبعين رجلاً من المدينة فاجتمعوا عند العقبة أيضا وبايعوه على أن يمنعوه منه نساءَهم وأبناءَهم وكان عدد هؤلاءِ سبعين رجلًا وامرأتين على ما ذكره بعض المؤرخين. وفي هذه الأثناءَ سرى بعض الخبر إلى كفار قريش باجتماع الرسول ﷺ بأهل المدينة وعندما خاف القرشيون أن ينتقل رسول الله ﷺ إلى المدينة فتقوى شكيمته وينقلب عليهم بين عشية وضحاها. .

فعزموا حينئذ على قتله. . واجتمعوا بدار الندوة يتشاورون في أمره على ما حكاه ابن هشام وفي هذا نزل قوله تعالى: ﴿وإذ يمكرُ بكَ الذينَ كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر اللهُ والله خيرُ الماكرين﴾. .[1].

ومن هنا كان أمره تعالى لنبيه ﷺ بالهجرة إلى المدينة عندما لاقى هو وأصحابه الأذى والتنكيل من كفار قريش فشد العزم على الهجرة وصاحبه أبو بكر رضي الله عنه. . وكان المسلمون قد هاجروا قبلهما وتأخر هو إلى هذه المدة لكى يأمنوا ويأمن هو كذلك. . وفي المدينة وعند استقراره أيده الله بالنصر والتوفيق فقد وحد الله به وجمع من أجله الأوس والخزرج وأسلم من أسلم وكفر من كفر ونافق من نافق. . ولقد من الله على نبيه بدار الهجرة حيث نصره الله بالأنصار الذين فدوه بأنفسهم وأموالهم وما يملكون. . وصاروا معه على كل معتد أثيم. .

(١) سورة الأنفال آية ٣٠.

ولقد كانوا في تلك الدار مع قلتهم وقلة عدتهم أقوى ما يكون فلقد ذكر جملة من المؤرخين بما فيهم بعض المستشرقين أنه كان لهم من القوة ما يلاقون به صم الجبال خاصة تلك القوة المعنوية التى وهبها الله إياهم بسبب صدقهم وإخلاصهم مع الله ورسوله ﷺ وفي هذا الحين وعندما رأت العـرب أن المسلمـين تقوى شوكتهم يوماً بعد يوم عندئذ رمتهم العرب عن قوس واحدة واجتمعت العرب على حربهم وإبادتهم أبداً. . والله سبحانه وتعالى يصبر نبيه ويأمره بالهدوءِ والسكينة. . حتى من الله على رسوله والمؤمنين بالقوة عند ذلك استطاع هؤلاءِ مع قلتهم وكثرة عدوهم من فعل العجب الذي ما زال حتى هذا الحين حديث المتحدثين ولقد فطن بعض مفكرى أوربا إلى هذه القوة مع تلك القلة وتلمس إجابة شافية فأجاب: أنه الصدق حيث يكون الصدق مع الله. . وهذا حق ولكن لنـدع قول هذا الأروبى فالتـاريخ والفكر الإسلامىّ على العمـوم قد إمتـلأ بأقـوال القائلين الذين قالوا عن سبب انتصار ـ: المؤمنين :ـ في ذلك الوقت. . ولا جرم يكون النصر حليف كل جماعة مؤمنة صادقة متواضعة مع الناس ولا جرم كذلك يكون الفوز قبل كل شيء لمن أراد الله والدار الآخرة ليس إلا. .

إن الصحابة عليهم الرضوان جدوا في سبيل نصرة دين اللهِ وطلبوا من أجل ذلك الموت فوهبت لهم الحياة، وتركوا الدنيا فأتتهم وهى صاغرة.

إنه الصدق. والاخلاص. والبذل. والتضحية لكى يقوم الحق إن أمام المجاهدين عقبة كؤد وأصناف من الأذى مما لا يصدقه إنسان في عصر مثل هذا العصر البتة.

وإن التقدم الذي أحرزه القوم في مجال الحرب النووية والتطور الهائل في مجال الذرة لا يجعلنا في ذعر وهلع بل إننا ولا جدل نستطيع أن

نكون خيراً منهم إذا استفدنا من الاخطاء واستعملنا العقل والحكمة وكنا كما كان الاصحاب الاولون، ولا يجعل هذا عسيراً إلا العجلة في أمرنا وإلا ضعضعة الإيمان بالله تعالى وضعضعة الإيمان بالقضاء والقدر وقبح التربية وقلة الفقه بشرع الله، واذا تدبرنا الواقع بان لنا ما لم يكن بالحسبان لو حسبناه.

ولا شك أن هذا التقدم المشار إليه ليس إلا لأن القوم صدقوا فيما بين أيديهم من علم دنيوى وتقنية حديثة. وهم بهذا يكونوا وصلوا إلى مرادهم واستطاعوا عن هذا الطريق وطريق البحث العلمي المتقدم أن يقودو قومهم إلى ما يقولون أنه المجد ولعل (الفقه) الذي يلزم الوقوف عليه من حال يعيشها المسلمون هى أنهم لم يعطلوا «الجهاد» لكنهم جهلوا حقيقته وهذا يعود إلى أن الشريعة يتلقاها المتلقي دون فهم لاحكام بعض العبادات فيها كالجهاد، كما أن هناك سبب آخر وهو الانفتاح على الحياة المعاصرة والسير على ضوء ما يرد من تلك البلاد دون تمحيص ودراسة فكأن المسلم انشغل بما لا نفع فيه فأصبح وقته يسير بين فهم عام دون عمق وبين إنشغال لحاجة ثانوية، وندرك من حال أهل القرون المفضلة أنهم قصروا أنفسهم أولاً على فهم التوحيد والقيام بالعبادات والاهتمام بالتربية الصحيحة حتى لقد كان الواحد.. منهم يسير إذ يسير ويأخذ ويعطي مترجماً للوحي المنزل فصاروا بهذا مقبلين على العبادات خاصة.. الجهاد.. في حالهم الأولى لأنهم أدركوا جهاد المسلم وأنهم به يحيون موات النفوس من درن المادة وحب الذات فلا لوم إذاً على من أخذ من الإسلام تطبيقه وهو غير مسلم بل يكون اللوم على المسلم إذ لم يقم تجاه دينه بما يلزم أن يكون ولعل هذا هو الفرق بين تلك القرون المفضلة وهذه القرون.

والجهاد كما قلنا في الصفحات الأولى من هذا الكتاب لا يأتي كونه

جهاداً إلا أن يسبقه: جهاد النفس.. وجهاد الشيطان.. وجهاد الكفار.. وجهاد المنافقين.

وهذا كله لا يكون ما لم يحصل للمسلم «فقه» في الدين يدركه ويسير على هداه ونظر حال الصحابة هى نظر حال ما أراد الرسول ﷺ منهم وهذا ما يتعين أن يكون لادراك الجهاد في الإسلام بعد كل هذا وذاك.

مراحل تشريع الجهاد

يتبين لنا بوضوح كبير بعد الذي سقناه من أحوال الرسول ﷺ.. وحال أصحابه عليهم الرضوان يوم كانوا بمكة حيث لاقوا المتاعب والصعاب من المشركين وواجهوا كل تشريد من قومهم.. إن الجهاد كان مقصوراً على الدعوة والحجة والبيان دون أن يؤذن للمسلمين بقتال بل أمروا بالصبر والعفو.. ولكن هذا لا يعني ذلهم أبداً أو استكانتهم للغير بل كانوا أقوياء كطود صعب الاهتزاز ولقد استمر صبرهم وعفوهم طيلة مكثهم بمكة إلى أن شرع الله تبارك وتعالى قتال الكفار بالمدينة بعد الهجرة.

وسنبين المراحل الأولى لجهاد المشركين موضحين هذه المراحل بشيء من التفصيل حتى يمكن القول بعدئذٍ كيف كانت طبيعة الجهاد في الإسلام.. وأنه بعد ذلك يكون من العسير جداً مخالفة مادل عليه الواقع وأشار إليه البيان، وما كنا لنذكر من ذلك إلا اليسير بيد أنه من المفيد ذكر المراحل لكي يتضح بجلاء أن الجهاد قد مر بمراحل كان فيها يسير من مرحلة إلى مرحلة حتى مر ووصل أخيراً إلى المرحلة الأخيرة التي كان فيها الجهاد واجباً على كل مسلم قادر مستطيع متمكن.. وأنه من الصعب أن يقال شيءٌ بعد هذا التحليل لمراحل الجهاد في سبيل الله إذ قد تبين من هذا كله الحق الذي يجب اتباعه خاصة إذا كان هذا الحق قد رافقه الدليل.. والمراحل هذه مر بها الجهاد تدرجاً لكي يفسر لنا هذا أن الجهاد كان يساير الدعوة ولابد للدعوة من جهاد وإلا فالدعوة وحدها قد تكون وبالاً إذا طالت على ملتزميها ما لم تكن الدعوة (وسيلة الجهاد..) حاصلة في حياة المسلمين.

ولقد حقق كثير من المفسرين والمؤرخين هذه المراحل. ولكن بشيءٍ من الإجمال، إذ لم أقف على مفسر أو مؤرخ ممن قرأت لهم إلا وقد أدخل بعضها ببعض حيث لا يقدر مع ذلك معرفة المرحلة الأولى من

الثانية وهكذا . . وقد وفقت مابين يدى من مراجع وحاولت أن أبرز هذه المراحل بشيءٍ من الترتيب . . ولعل الامام ابن تيمية وابن القيم في كتابيهما السياسة الشرعية . . وزاد المعاد وابن هشام في السيرة النبوية وغيرهم قد ذكروا شيئاً من التفصيل الحسن في ذلك وإن لم يكونوا قد رتبوها للوقوف على كل نقطة . . وها نحن في سبيل عرض المراحل لإيضاح تطور التشريع ومروره بأدوار كانت الحكمة في ذلك كله حكمة أتت ثمارها في حينها المرتقب القريب.

المرحلة الأولى:

لقد علمنا من الآيات السابقة وأحوال الرسول ﷺ وصحابته بمكة أن الله تبارك وتعالى قد حرم عليهم القتال طيلة العهد المكى . . ونزل النهى في أكثر من سبعين آية من كتاب الله وكان الصحابة في هذه الفترة الحرجة يأتون الرسول ما بين مضروب ومشجوج فيقول لهم: اصبروا فإنى لم أومر بالقتال. ولقد واجه الصحابة في هذه المدة الأمرين وسبق أن ذكرنا بعض مالاقاه بعض الصحابة عند التصريح كبلال، وآل ياسر، وخباب. فكان الرسول ﷺ يقف متعجباً من صبرهم وكيف فعل بهم اليقين بالله، إن الذي يعيش عيشة الصحابة ويذوق ماذاقوا لايصبر ولا يقوى على شيءٍ مما قدروا عليه أنهم كانوا متسلحين بسلاح عظيم لا تقف في وجهه أى قوة من قوى البشر مهما كبرت ولقد كان بعضهم يُراقب في بيته الشهور الطوال وفي بيعه وشرائه . . وقد يسجن ويُعذب فكان هذا لا يزيده إلا الإيمان . . في هذه المرحلة الأولى صبر الصحابة ولم يبادلوا القوم عدوانهم بل كانوا في صبر ورجاء.

المرحلة الثانية:

هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة وكثر أنصاره ومؤيدوه وقويت شوكة المسلمين واشتد جناحهم، عندئذ أذِن الله لهم بالقتال دون أن يُفرض

هذا عليهم. وذلك في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ للذين يُقَاتَلُون بأَنَّهم ظُلموا وإِنَّ الله عَلَى نصْرِهِمْ لَقَدِير. الَّذِينَ أُخْرِجُوا من دِيارهم بغَيْر حَق إلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا الله ولَوْلاَ دَفَعَ الله النَّاس بَعْضَهُمْ ببَعْض لهُدِّمَتْ صَوامعُ وبيَعٌ وصَلَوَاتٌ ومَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسم الله كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ الله مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ الله لَقَوِيٌ عَزِيزٌ. الذِينَ إن مَكَّنَاهُمْ في الأَرض أَقَاموا الصَّلَاة وآتوا الزَّكاة وأَمَرُوا بالْمَعْرُوف ونَهَوا عَنِ المُنْكَر ولِلَه عاقبة الأُمور﴾[1].

وقد قالت طائفة: إن هذا الأَمر كان بمكة والسورة مكية وقد رد الإمام ابن القيم هذا القول وهو الذي نميل إليه رده وبين وجه الغلط في ذلك حيث قال مافحواه:

أَولا: أَن الله لم يأْذن بمكة لهم في القتال، وكان لهم شوكة يتمكنون بها من القتال بمكة.

ثانيا: أَن سياق الآية يدل على أَن الإذن بعد الهجرة وإخراجهم من ديارهم، فإنه قال: ﴿الذين أُخرجوا من ديارِهم بغير حق إلا أَن يقولوا ربنا الله﴾. ـ وهؤلاءِ هم المهاجرون.

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم﴾: نزلت في الذين تبارزوا في يوم بدر من الفريقين ومعلوم أَن يوم بدر كان بعد الهجرة ولم يكن بمكة ولا قريباً منها فلا يقال أَن السورة مكية مع هذا.

رابعاً: أَن الله تعالى قد خاطبهم في آخرها بقوله: ﴿يا أَيها الذين آمنوا﴾: والخطاب بذلك كله مدنى.

خامساً: أَن الله تعالى أَمر المؤمنين بالجهاد الذي يعم الجهاد باليد وغيره. ولا ريب أَن الأَمر بالجهاد المطلق إنما كان بعد الهجرة فأَما جهاد

(١) سورة الحج آية ٣٩ ـ ٤١.

الحجـة فأمر به في مكة بقوله تعالى: ﴿فَلا تُطِعْ الكَافِرِينَ وجاهِدْهُم به﴾: (أي القرآن) «جهاداً كبيراً» فهذه سورة مكية والجهاد فيها هو التبليغ. وجهاد الحجة. وأما الجهاد المأمور به في سورة الحج فيدخل فيها الجهاد بالسيف وذلك إنما كان بالمدينة. أما في مكة فلم يكن كذلك.

سادساً: أن الحاكم روى في مُسنده من حديث الأعمش عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما خرج رسول الله ﷺ من مكَّة قال أبو بكر رضيَ الله عَنه: «أخرجوا نبيهم إنا لله وإنا إِلَيْهِ رَاجعُون ليهلكن.». فأنزل الله عز وجل.. ﴿أذِن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا﴾.. وهي أول آية نزلت في القتال وسياق السورة يدل على أن فيها المكي والمدني، فإن قصة إلقاءِ الشيطان في أمنية نبيه عليه السلام مكية﴾[1]..

وإتماماً لذكر قوة ماذهبنا إليه من أن الآية مدنية فقد قال ابن عباس ومجاهد وعروة بن الزبير وزيد بن أسلم وقتادة ومقاتل وابن حبان: هذه أول آيـة نزلت في الجهـاد ولعلنـا بعد هذا كله ندرك أن هذه الآية مدنية.. وأن هذه المرحلة من مراحل الجهاد كان المؤمنون فيها يقاتلون من قاتلهم ولكن دون أن يفـرض عليهم القتـال الذي هو هنا قتال الكفار.. حيث أنهم بعد لم يكملوا أمرهم ليكونوا في استعداد لمواجهة العدو في أي ساعة تكون.. إن هذه المرحلة تعتبر في الحقيقة مقدمة لما بعدها من مراحل ونحن إذا قرأنا ودرسنا هذه المراحل التي أمر بها الإسلام نجد أن فيها من الحكم ما تقصر عنه العقول والأفهام. وكما لا يخفى فالآيـات صريحة ومعناها ظاهر وسبب نزولها متواتر وبعض الآثار تعضد ذلـك من أكثـر من وجـه..

---

(١) زاد المعاد. جـ ٢. ص ٦٥. بتصرف.

إن مشكلة الغلط في تدوين البحوث عن الفقه الإسلامى والتفسير والحديث أن بعض الباحثين قد ابتعدوا عن القرآن وكتب السلف ولو كان من بعضهم الرجوع الأكيد إلى علوم الإسلام النقية لبان الأمر ووضح.. إننى هنا أخاطب الباحثين المسلمين الذين وقعوا فيما يجب أن لا يقعوا فيه لأنهم في الغالب مع الحق فيما يكتبون.

المرحلة الثالثة:

وكانت هذه المرحلة من مراحل الجهاد في الإسلام هو إيجابه لقتال من قاتل المسلمين دون من كف عنهم.. وفي هذه المرحلة لم يُعهد أن أحداً من المسلمين قاتل عدوه وهو لم يقاتله.. والذين ظنوا أن هذه هى المرحلة الأولى والأخيرة في الجهاد يأتون بشطط من القول.. إن الذين يذهبون إلى أن الجهاد في الإسلام يعنى الدفاع يركبون مركباً صعباً.. إذ يظنون أنه لا مراحل للجهاد.. وإن قالوا بذلك فهم يخلطون ويجعلون هذه المرحلة هى كل شيءٍ ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: ﴿ تُرْهِبُون بِهِ عَدُوَّ الله وعدُوَّكُمْ﴾. وقوله: ﴿وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ الله لاَ يُحِب الْمُعْتَدِينَ﴾.

ويزعم هؤلاءِ: أن الإسلام جاءَ للبشرية لقصد إدخال الخلق في الإسلام عن طريق الدعوة فقط وعن طريق المسالمة وكف الاعتداءَ. وهم هنا يقعون في خطأ كبير إذا لو كانوا يدركون معنى الجهاد من حيث اللغة والإصطلاح وواقع الأمر، ويفرقون بالتالى بين معناه في الدفاع والطلب ورد الاعتداءَ لما وقعوا فيما وقعوا فيه.. ولقد جاز هذا العمل لكثير من خصوم هذا الدين فذهبوا يستدلون بأقوال المسلمين الذين وقعوا في الخطأ وهذه والحق يقال: نقطة خطيرة على هذه الفريضة العظيمة خاصة في عصر يجب فيه الجهاد..

إن هذه المـرحلة بالـذات فيها نقص إذا قرأت وحدها ولو قُرأت كذلك لما كان للقاريء أيا كان فائدة من إدراك معرفة حقيقة الجهاد وطبيعته في الإسلام. . فلابد لمريد الحق من دارسى التشريع والأحكام من استقصاءِ الحقائق وسؤال علماءِ كل فن وعلم من علوم الإسلام وإلا فإن بحوث الدارسين المعاصرين يعتريها نقص أكيد وهذا يدل على خلل في الفهم والأدراك. . . ويكون هذا بالتالى إشارة إلى قصوره في استيفاءِ النقاط المهمات. . إن المرحلة الرابعة لم يعقلها كثير من الباحثين ويلوون آيـاتهـا من أجل أن لايقولوا أن. . الجهاد في الإسلام يعنى الابتداءِ والطلب. . إن الإسلام حين يقرر حكمًا ويقول قولاً لا يقرره إلا ويُثبت له الدليل ليعمل المسلمون به. . والمرحلة الثالثة هذه كانت لزاماً وأن يمر بها الجهاد وهي قتال من قاتل المسلمين دون من لم يقاتلهم وليس في هذا شيءٌ أبداً وإنما هو تمهيد للقتال الواجب لجميع الكفار ليكون الـدين كله لله وعن هذه المرحلة يقول تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾. .

أما قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ولاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينْ﴾. . فإن بعض أهل العلم جعلوها من أدلة هذه المـرحلة من مراحل الجهاد وهو أن يكون للدفاع فقط. . ولقد راجعت بنفسى هذه الآية وقلبتها على كل معنى موافق من غير شطط فلم أر إلا أنها من أدلة هذه المرحلة. . وليست من الأدلة القاطعة التى يجب أن لا يتعداها الإنسان. . ويحسن بالباحث أن يكون دقيقاً خاصة فيما يتعلق بمسائل معرفة الأحكام والحلال والحرام. .

وهذه المرحلة كأي مرحلة قبلها جعلها الله تعالى لكى تكون طريقاً للمؤمنين من أجل أيجاب الجهاد حتى إذا ما أتت المرحلة التالية وإذا المسلمون قد قدروا على كل شيءٍ يمكن أن يكون من حمل السلاح

وملاقاه الأقران. . وهذا في الحق هو الذي حصل فما أن توصل الأمر إلى إيجاب الجهاد حتى بذل المسلمون دماءَهم وأموالهم في سبيل نصرة دين الله. .

وفي هذه المرحلة انتشر الإسلام وعم أكثر بقاع الجزيرة العربية. . ودانت للإسلام في هذه المرحلة بعض قبائل العرب خائفة على نفسها ومكانتها. . وما لبثت أن دخلت الإسلام حيث رأت الرحمة والأمن والعدل السماوى الأكيد. .

المرحلة الرابعة:

هنا بيت القصيد ومدار القول ووقوف وتوقف الباحثين في مسألة حكم الجهاد. ونوعيته. . هذه المرحلة من مراحل الجهاد هى التى فرض الله تعالى فيها القتال قتال المشركين كافة مع البدء بالأقربين دارا وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿فإذا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهم وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مرْصَدٍ فإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ الله غَفُور رَحِيم﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافةً كَمَا يُقَاتِلُونكُم كَافةً وَاعْلَمُوا أَنَّ الله مَعَ المتَّقِينَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَقَاتلُوهُم حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَة وَيكُونَ الدِّينُ لله فإِنْ انْتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَة ويكون الدينُ كلهُ للهِ فإِن انْتَهَوْا فَإنَّ الله بما يَعْمَلُون بَصِيرٌ﴾[4].

---

(١) سورة التوبة آية ٥. (٢) سورة التوبة من الآية ٣٦.

(٣) سورة البقرة ١٩٣. (٤) سورة الأنفال آية ٣٩.

وقال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الذِينَ يَلُونَكُم من الْكُفَّارِ ولْيَجِدوا فِيكُم غِلْظَةً واعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ المُتَّقِين﴾[1]..

وقال تعالى مُعظمًا أمر الجهادِ وذاماً تاركه، ووصف التاركين بالنفاق، ومرض القلب.. أى المرض المعنوى..

قال: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُم وأَبْنَاؤُكُم وَإِخوانُكُم وَأَزواجُكُمْ وَعشيرتُكُمْ وأَمْوالٌ اقْترفْتمُوها وتجارةٌ تَخْشونَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَها أَحبَّ إِلَيكُم من اللهِ ورسُوله وجِهَاد فِي سبيلهِ فَتَربصَّوا حَتَّى يَأْتِى اللهُ بَأَمرهِ واللهُ لا يَهدِى الْقومَ الفَاسِقِين﴾[2].

وقال تعالى: ﴿إنما المؤْمنْون الذين أَمَنوا بالله ورسوله ثم لم يَرْتَابُوا وجَاهَدُوا بِأَموَالِهم وأَنفسهم فِي سَبِيلِ الله أُولئِك هُمْ الصَّادِقُون﴾[3].

وقال تعالى: ﴿فإِذَا أُنْزلَتْ سُورةٌ مُحْكَمَةٌ وَذكِـرَ فِيهَا الْقِتَالُ، رَأَيتَ الذِّينَ فى قُلوبِهمْ مَرضٌ يَنْظُرونَ إِليكَ نَظر الْمغْشىِّ عَلْيه مِنَ الموت فأَولَى لَهُمْ طاعَةٌ وَقَولٌ مَعْروُفٌ، فإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلوْ صَدَقُوا الله لَكَانَ خَيراً لَهُمْ﴾[4].

ونذر اللهُ تباركَ وتَعَالَى مَنْ تَركَ الجهادَ بأَنَّه يُلقى نفسَه بالتهلكة حيثُ يقولُ: ﴿وَأَنْفِقُوا فى سَبيلِ الله ولا تُلقَوا بِأَيديكم إلى التَّهلُكَةِ وأَحسِنوا إِن الله يُحب المُحسَنين﴾[5].

---

(١) سورة التوبة آية ١٢٣.

(٢) سورة التوبة آية ٢٤.

(٣) سورة الحجرات : ١٥.

(٤) سورة محمد آية ٢٠ و ٢١. ويحسن الرجوع إلى الجزء الثامن من الفتاوى لابن تيمية «كتاب الجهاد»

(٥) السياسة الشرعية ص ٣٩.

فقد روى أبو داود والترمذى وغيرهما من حديث يزيد بن أبى حبيب عن أسلم عن أبى قالَ: حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى فرقه ومعنا أبو أيوب الانصارى رضي الله عنه فقال: ناس -: ألقى بيده إلى التهلكة، فقال: أبو أيوب: نحن أعلم بهذه الآية إنما أنزلت فينا - صحبنا رسول الله ﷺ وشهدنا معه المشاهد ونصرناه فلما فشا الإسلام وظهر.. اجتمعنا معشر الأنصار فقلنا: قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ وقد وضعت الحرب أوزارها فنرجع إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيهما فنزلت فينا -: (وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة). فكانت التهلكة في الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد، هذه هي المرحلة الرابعة التى فرض الله تعالى فيها الجهاد فرضاً على المسلمين واوجبه عليهم.

وإن نظرة عابرة على الأقل في جميع هذه المراحل التى شرعها الإسلام أولا بأول حكمة بالغة كيف أن القتال تدرج بهذه الصورة الرتيبة حتى كان آخر الأمر في صورته الأخيرة حيث كان الجهاد واجباً لاتردد في وجوبه عند الصحابة وهم أعلم الأمة بعد نبيها عليه الصلاة والسلام، وعند إدراك ضرورة الجهاد ودعوة الكفار وأهل الكتاب بالتدرج ندرك حقاً كيف كانت المرحلة الرابعة موجبه للجهاد.

إن وجوب حمل السيف بعد الدعوة المتكررة والإلحاح أمام طغاة العرب في القديم كان واجباً أن يكون.. لقد حدث التاريخ العربى كيف كانت حالة العرب قبل الإسلام وأرشد ابن الأثير وابن كثير والطبرى وإبن خلدون. إلى حالة العرب وما هم عليه.. وهذا ولاجرم يبين لنا نوعاً من الحكمة التى جُعلت في تدرج مراحل الجهاد.. وإلقاءِ نظرة على هذه النقاط البارزة التى سوف نوردها تكفل بجد تبيين الطريق لمن أراد السير فيه:

أولا: كان الصحابة رضى الله عنهم من القلة بحيث لا يقدرون على تحريك ساكن فهم في هذا يحتاجون إلى بنيان النفس والتربية الإسلامية الكاملة وهم يحتاجون أيضاً إلى بعض الوقت يدركون فيه موقف العرب منهم.

ثانيا: كان الصحابة من القلة بحيث يصعب معها البدءُ بالقتال لذا كانوا لا يتعرضون البتة لمن آذاهم بل كانوا يصبرون ويعفون.. فلو قاتلوا في هذا الحين من قاتلهم لما قدروا على ذلك إلا أن يشاءَ الله.

ثالثاً: كثر أفراد الصحابة وشربوا لبان العقيدة من معينها الصافى.. وكانت لهم قوة بسيطة لا تقف في وجه العدو وكان ذلك بالمدينة دولة الإسلام الأولى فكان أن فرض الله عليهم القتال دون أن يكون فرضه مطلقاً..

وذلك لكى يمر المؤمنون بدروب تدريبية يكونون بعدها كأقوى ما يكون.

رابعاً: زاد عدد المسلمين وقويت شوكتهم مع الأيام، والعرب بعد لم يزالوا في بُعد كبيرٍ عن.. الدين.. فكان أن فرض الله عليهم القتال قتال من قاتلهم فقط.. وذلك لكى يكون هذا راداً العرب عن بغيهم وعدوانهم وموجداً في أنفسهم بعض الخوف فيما لو أرادوا قتال المسلمين..

خامساً: الإسلام لم يأتِ لأناسٍ ولا لوطنٍ دونَ وطنٍ ولا للونٍ دونَ لونٍ ولكنه جاءَ للعالمين كافة.. من أجل ذلك كان الجهاد مطلباً ضرورياً لتعريف عامة الناس للإسلام.

سادساً: إسلام المشركين ضرورة بالنسبة لهم رحمة بهم ودخولهم في هذا الدين يلزم به جميع المؤمنين أبداً.. وليس بعد الدعوة إلى الجهاد..

فيُعرف من هذا كيف كان الجهاد فرضاً أكيداً على كل قادرٍ مستطيعٍ ليسَ عندَه مَا يمنعهُ ومن هذا نَعلم جيداً وجوب الجهاد في دين الإسلام ونعلم كذلك أن الإسلام من الأمور المهمة الضرورية لإزالة العبث والبغي والفساد واقرار توحيد الله. ولعل نظر حال الجهاد في الغزوات والسرايا تدل بطبيعتها على أن الجهاد كان لازماً بعد أن قويت شوكة المسلمين وتكونت لهم دولة في المدينة ومعنى هذا كما سيأتى أن جهاد المشركين إنما يكون على طريق الابتداء لكن كما سلف القول في حال ضعف الشوكة فإن الجهاد يكون بجهاد النفس وتربية الروح والاعتصام بالله ومن ثم يبدأ جهاد الكلمة الموزونة.. والنصيحة العاقلة.. والخطبة والحكمة والمتتبع لحال الأمة يجد أن الجهاد لم يتوقف لكنه كان جهاد: كلمة: ونصيحة.. وخطبة هذا في حال الضعف، ومن هذا نقف على حقيقة ما تقرر سلفاً أن الجهاد خلال المرحلة الرابعة إنما كان لتقرير حكم شرعى دلت عليه الادلة واشارت إليه البينات.

ونحن حينما نعود إلى مجمل آيات الجهاد والأحاديث الواردة فيه[١]. نجد من خلال هذا الاجمال المراد واضحاً في هذا كله، إننا من خلال إستقراء حال الغزوات والبعوث الاستطلاعية[٢] نجد مصداقاً لحقيقة هذه المرحلة ولست أظن أن عملية.. الدفاع.. في الجهاد هى مرحلة أولى وأخيرة لأن هذا يخالف ماورد ودل عليه حال المجاهدين في الغزوات والسرايا المختلفة التي تُبعث هنا وهناك بين المشركين لادخالهم في دين الله وما الدعوة إلا وسيلة للتعليم والتعريف بالدين الإسلامي لكنها في وسط المسلمين للتبليغ والموعظة والدلالة والارشاد وبهذا ندرك حقيقة المطلب فيما جاءت به النصوص ودلت عليه الأحاديث.

(١) سورة: الانعام براءة الأنفال.. طه.. الأنبياء.. الحج «كتب الجهاد» في الصحاح والسنن.

(٢) وغالب كتب السيرة اشارت إلى هذا.

شـــروط وجـوب الجهـــاد

لم يكن من بد أن يجعل الإسلام لكل أمرٍ من الأُمورِ علامات يقف عندها المسلم لا يتعداها إلا إذا اكتمل فيه ما وجب أن يكتمل حتى يؤدى دوره داخل الإسلام. . والذي درس هذا الدين من أصوله الصحيحة ومن النظر في ذلك يجد أن هذا الدين بحمد الله لم يُلق الأمر جزافاً. . فلقدوضع حدوداً يعرفها المسلم الصادق فيتحرى من ذلك كله الصواب ويفعل ما أمر الله بِهِ أن يوصل. . وذلك حتى يمكن أن يسير المسلم وفق مخطط مرسوم من لدن حكيم خبير. . والذى يطالع ويتحقق في الإسلام يجد الإسلام حكيمًا في وضعه في أمرِه ونهيه في تحليلِه وتحريمه فهو قد رتب كل شيءٍ ولم يعد الأمر بعد الإسلام ليحتاج إلى نقص أو زيادة ومن ذلك أن الله سبحانه وتعالى لما فرض الجهاد في سبيله ووضح هذه الفريضة رسوله ﷺ في جملة من أحاديثه في الصحاح وغيرها لم يقف الأمر عند هذا الحد وكفى بل قد بذل علماءُ الدين من هذه الأمة كل قولٍ وحكمٍ يتعلق ـ بالجهاد ـ ولقد أخذ العلماءُ رحمهم الله من الآيات والأحاديث جملة شروط لمسألة الجهاد يجب توفرها في المجاهد حتى يُعرف المجاهد المستحق للجهاد ممن لم يستحق ذلك ووضع العلماءِ هذه الشروط العظيمة لمن أراد الجهاد خصلة حميدة لهذا الدين إذ يكون كل شيءٍ يسير وفق تنظيم دقيق يعرف المسلم من ذلك مطلبه وكتب الفقه الإسلامى قد جمعت هذه الشروط وشرحتها شرحاً حسناً. . وإن كان ثمة خلاف فهو خلاف هين يدور حول جزئيات هذه الشروط ونحن سنذكر الراجح وما نختاره من كل مذهب نميل إليه نراه موافقاً للصواب. .

ويتبين لنا من خلال عرض الشروط وشرحها كذلك أنها شروط مهمة لمن أراد الدخول في سلك المجاهدين. إذ هى شروط عظيمة القدر إذ عليها يعتمد المعتمدون بعد الله. ولعل من سوءِ العمل أن يجاهد

الإنسان وهو بعد لم تتوفر فيه بعض الشروط أو يجاهد دون معرفة واقع الناس وواقع الحال إن العلماءَ حملوا راية العلم الإسلامي على مدار القـرون التفتـوا التفاتة جيدة إلى شروط وجوب الجهاد حتى يتمكن المسلم من رد الاعتـداءِ والبدءِ بالقتال. . والسؤال الذى فحواه: أن بعض السابقين جاهدوا مع نقصٍ في بعض هذه الشروط. .

هذا سؤال واردٌ وله وجهته.

بيد أن السائل لا يُعذر إذا أدرك الجهاد والفرق بين عصر وعصر. . وعلم طبيعة الأعداءِ وما هم عليه من حال ومآل. . وعلم حال المجاهد ومدى تحمله الحسى والمعنوى ومدى نتائج الدوائر مع الخصوم.

أما إن كان جاهلاً فعذره - أن يؤمن - ليدرك معنى الجهاد على كل حال. . وإلا فالأولى به وأمثاله أن لا يحروا أى جواب غير السؤال.

والشروط المشهورة سبعـة.

١ - الإسلام ٢ - البلوغ ٣ - الحرية
٤ - الذكورية ٥ - السلامة من الضرر
٦ - العقل ٧ - وجود النفقة.

أولاً: الإسـلام والبلوغ والعقـل ذكـر العلماءُ أن هذه شروط معتـبرة لوجوب سائر الفروع في دين الإسلام.

أما الكافر: فغير مؤتمن أصلاً. . ولا يكون مُجاهداً إلا إن كان الكافر مُجاهداً من قائد المسلمين على أن يكون له الجُعل مقابل جهاده. . وهذا قليل جداً لم يحدث اللهم إلا في أندر الأحوال.

أمـا الصبى: فيكـون في الغـالب ضعيف البنيـة لا يستـطيع على مواجهَـة الأعداءِ. . وقد ورد في الحديث المتفق عليه: أن ابن عمر

رضـي الله عنهما قال: عُرضت على النبى ﷺ يوم أُحد وأَنا ابن أَربع عشرة سنة فلم يجزنى في المقاتلة.. أَما الغلامِ الذى دون البلوغ ولكن لديه القدرة على القتال فلا ضير في ذلك وقد أَجاز الرسول ﷺ يوم أُحد سمرة بن جندب ورافع بن خديج.

وكان ﷺ قد ردهما فقيل له:

إن رافعاً رام فأَجازه، فلما رأَى سمرة بن جندب ذلك قال: يارسول الله: إنِي أَصرع رافعاً فتصارعا فصرع سمرة رافع بن خديج فأَجازه كذلك أَما المجنون: فلا يتأَتى منه الجهاد ولا يستطيع ذلك فهو مشغول بنفسه عن غيره إلى أَن يشفيه الله تعالى.

ثانياً: الحرية تُشترط في الجهاد لما رُوىَ أَن النبى ﷺ كان يبايع الحر على الإسـلام والجهاد ويبايع العبد المملوك علي الإسلام دون الجهاد وهذا يؤخذ منه أَن الحرية شرط لوجوب الجهاد لأَنه لم يعهد أَن الرسول ﷺ قد شرط على العبد المسلم[1] الجهاد ويقوى هذا ويدل عليه وهو الذي نميل إليه خلافاً للبعض أَن الجهاد عبادة كالحج.

ثالثاً: الذكورية تُشترط وذلك لما جاء عن عائشة رضـي الله تعالى عنها قالت: (قلت يارسول الله هل على النساءِ جهاد..؟ فقال: جهاد لاقتال فيه، الحج والعمرة). رواه البخاري.

وهـذا الشرط وجيـه جداً خلافاً لمن لم يره وما شرطه الإسلام إلا لحكمة عظيمة.. فالمرأَة عورة ما في ذلك شك.. وهى كذلك ناقصة عقل ودين.. وضعيفة ولا يلتفت إلى القليل النادر من النساءِ اللاتى جاهدن في القديم والحديث.. ولقد كان الإسلامُ حريصاً على أَن لا تدخل المرأَة الجهاد.. وكان الرسول يرى ونعم مايرى أَن هذا ليس فيه

---

(١) حسب ما اطلعت عليه.

من الفائدة أي نفع بجانب تخليها عن الجهاد. . فلزومها بيتها وسهرها على حق زوجها وتربية أولادها هو نوع من الجهاد. . ولعل الحروب الحديثة التى ذهب ضحيتها آلاف النساءَ خاصة العرض خير شاهد على صحة هذا الشرط في الجهاد. . فلقد حدث ابان الحربين العالميتين الأولى والثانية وغيرهما من الحروب ما تحيرت منه العقول إذ كانت النساءِ في ذلك العهد البليد نهباً لكل هاتك ومُفسد ولست أقول إن معنى هذا أن المرأة لا تدخل الجهاد فالمرأة تدخل الجهاد إذا تطلب الأمر ذلك، خاصة في أشد الأزمات حيث يداوين الجرحى وينقلن الماءَ، ويمرضن المجاهدين المصابين، ويحملن العاجز إلى مكان أمين. . ولقد برهنت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ الله عنها وبرهن معها كثير من الصحابيات الجليلات في هذا المجال بالذات. . ولاننسى خولة بنت الأزور التي أدت دوراً مابرح صداه يملأ الآفاق. فمتى تطلب الأُمر إلَى عَمَل فإنَّ هذا الطلب يبرر الموافقة ولا يمنع مما فيه خير الخَاص والعَام.

ونتتقل إلى مسألة لم يهملها فقهاءُ وأئمةُ هذه الأُمة وهي: جهاد الخنثي المشكل. . فقيل لا يجب عليه جهاد وذلك لأنه لا يعلم كونه ذكراً أو أنثى فمدام أن الشرط فيه غير واضح فهذا يدعو إلى أن يُجنب الجهاد حتى يتضح أمره فيكون مهيئاً لأحد أمرٍ من الأمور اللائقة بمثله. .

وأرى خلافِ ذَلكْ بَعدَ النظَرِ في الأَدلة النقلية والعقلية. . صحيح مادام أكثر شبهٍ بالمرأة فلا جرم أكون موافقاً على عدم جهاده!. أما أن يميل إلى صفات الرجولة كالخشونة والقوة والصلابة وأكثر صفات الرجال فإنه حينئذٍ يجاهد. . والقول الذي جعله كالمرأة وأطلق يحتاج إلى دليل.

رابعاً: السلامة من الضرر شرط أصلى ومقبول ووجيه فالأعرج والأعمى والمريض هؤلاءِ لا يقدرون على الجهاد الكامل، بل قد يكون هؤلاءِ إذا خرجوا مع المسلمين للجهاد عالة ضررها أكبر من نفعها.. قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ، وَلاَ على الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾[1].

ويُعفى عن العرجِ البسيط الذي لا يمنعُ مِنَ الركوب والمشى ويُعفى أيضاً عن المرض الهين كوجع الرأس وألم الأصبع وما إلى ذلك من آلام لا يلتفت إليها في مثل مواطن الجهاد.

خامساً: النفقة وهى هنا شرط عالى المقام وضرورى فوجودها يُعتبر من مهمات المتطلبات. ومعنى وجود النفقة أن يقدر على آلة الحرب وأن يقدر على وجود دابة الركوب سالمة من المعوقات إذا كانت المسافة شاقة وبعيدة، وأن يكون مالكاً للنفقة في طريقة وأن يجعل لعائلته ما يكفيهم من أكل ولباس وعلاج أما من لم يستطع ذلك ولا هناك من يقوم مقامه فلا يجب في حقه الجهاد قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ على الْمَرْضَى ولاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا للهِ وَرَسُولِهِ﴾[2].

إما الذين لا يقدرون على الجهاد ولكنهم في سعة من العيش فهؤلاءِ إن وجد لهم من المكان ما يكفى وإلا سقط عنهم.. وليس معنى السقوط القعود البتة بل يجب عليهم جهاد قد يكون مهمًا وذلك كمعالجة المرضى وحماية الأهل والمال والوطن إذا كان مُسلمًا وغير ذلك مما يتطلبه قعودهم عن الجهاد.

---

(١) سورة الفتح آية ١٧

(٢) سورة التوبة آية ٩١.

أما الذين لهم قدرة ومكنة على الجهاد ولكنهم لا يجدون ما ينقلهم فإن مثل هؤلاء إن عجزوا عن السير على أقدامهم فلا جرم يكون هؤلاءِ في مؤخرة الجيش. فإن تعسر الوضع بالنسبة لخروجهم وكانوا صادقين مخلصين في إسلامهم فهم في عذر إذ قد بذلوا جهدهم وما في وسعهم ولقد حدث في زمن الرسول ﷺ أمثال هؤلاءِ.. فكان الرسول لا يجد ما يحملهم عليه فيعذرهم ويكل سرائرهم إلى الله فهو أعلم بهم.

أما التجار والأغنياءُ والقادرون على المال ثم لا يحاولون الخروج إلى الجهاد في سبيل الله وهم غير معذورين فإن هؤلاءِ وأمثالهم لا يعتبرون من المخلصين فيما يدعونه من صدق العمل إذ لو كانوا كذلك لما توانوا عن مد اليد والمساعدة والبذل في سبيل الله..

إن تجهيز المجاهد جهاد.. والقعود على أهله جهاد والنصح له والدعاءَ جهاد.. وفي كل ما يعود على المجاهد في سبيل الله من نصر وعطى وتأييد ومعاضدة كل ذلك الجهاد..

والذين يقدرون على الجهاد وهم على علم أكيد أن هذا الجهاد هو الجهاد المأمور به والمطلوب من كل مسلم ثم هم لا يجاهدون فهؤلاءِ يعتبرون من النقص على المسلمين إلا إذا برروا ذلك. بما يكون عذرهم فيه مقبولاً.

ولا يفوت عقلاءُ الأمة في كل العصور الإسلامية التدقيق والنظر في مجال الجهاد، أن يكون جهادهم صافياً نقياً عاماً غير خاص. لكى يكون عملهم موافقاً لما عليه سلف الأمة.

فضل الجهاد في سبيل الله

الجهاد في سبيل اللهِ شرف عظيم ومنزلة رفيعة لا يبلغها إلا مَنْ مَنَّ الله عليه بالإيمان العميق واليقين الصادق ولقد أكثر القرآن الكريم من الثناءَ على المجاهدين، وألفت الكتب في هذا الشأن وذلك لما للجهاد من مكانة سامقة في دين الإسلام وحسبنا أن الله تعالى فرضه على هذه الأمة وأنه ماض إلى يوم القيامة.

وقد أورد ابن تيمية في السياسة الشرعيةَ شيئاً نقتطف منه هذه الأقوال يقول: «والأمر بالجهاد. وذكر فضائله في الكتاب والسنة. أكثر من أن تحصر، ولهذا كان أفضل ما تطوع به الإنسان، وكان باتفاق العلماءِ أفضل من الحج والعمرة، ومن صلاة التطوع وصوم التطوع، كما دل عليه الكتاب والسنة، حتى قال النبى ﷺ: رأس الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد». وقال: «إن في الجنة لمائة درجة. ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماءِ والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله». متفق عليه. وقال: «من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار». رواه البخارى.. وقال: رباط يوم وليلة خير من الدنيا صيام شهر وقيامه، وإن مات أجرى عليه الذى كان يعمله وأجرى عليه رزقه وأمن النفاق». رواه مُسلم. وفي السنن «رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل»، وقال:«عينان لا تمسهما النار عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله» قال الترمذي حديث حسن، وفي مسند الإمام أحمد: «حرس ليلة في سبيل الله، أفضل من ألف ليلة يُقام ليلها، ويصام نهارها»[(١)].

وفي الصحيحين: «أن رجلاً قال: يارسول الله أخبرنى بشيء يعدل الجهاد في سبيل الله، قال: لا تستطيعه. قال فأخبرنى.. قال: هل

---

(١) يحتاج إلى نظر.

تستطيع إذ خرج المجاهد أن تصوم ولا تفطر، وتقوم لا تفتر. قال: لا قال: فذلك الذي يعدل الجِهاد».

وفي السنن أنـه قال: «لكل أمة سياحة، وسياحة أمتى الجهاد في سبيل الله»[١].

ثم يُعلق ابن تيمية بعد هذا فيقول: «وهذا باب واسع، لم يرد في ثواب الأعمال وفضلها مثل ماورد فيه، وهو ظاهر عند الاعتبار، فإن نفع الجهاد عام لفاعله ولغيره في الدين والدنيا، ويشتمل على جميع أنواع العبادات الباطنة والظاهرة، فإنه مشتمل على محبة الله تعالى والإخلاص له، والتوكل عليه، وتسليم النفس والمال له، والصبر والزهد». ويقول كذلك: «والقائم به من الشخص والأمة بين إحدى الحسنين دائمًا النصر والظفر، وإما الشهادة والجنة». أ هـ[٢].

والجهاد في سبيل الله فيه من الحكم والأسرار الشيء الذي قد يعجز عن إدراكه العقل البشرى. ولم يُرغِبْ فيه نَبىُ هذه الأمة إلا لما فيه من النفع والفائدة التى تعود على والمُجَاهَدِين.. وقد رغب الصحابة والأئمة من بعدهم في فريضة الجهاد وعلته أنه لا قيام للحق إلا بالدعوة وبالجهاد.

وتـرغيباً في الجهاد جاءَ قَوْلُهُ تَعَالى: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَةَ يُقَاتِلُونَ فى سَبيلِ اللهِ فَيَقْتُلُون ويُقْتَلُونَ وَعَداً عَلَيْهِ حَقاً، فِي التَّوْرَاةِ والإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بعَهْدِهِ مَنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرْوا بِبَيْعِكُمُ الذَّى بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعظِيمْ﴾[٣].

---

(١) السياسة الشرعية ص ٤٢ ـ ٤٤.

(٢) يحتاج إلى نظر.

(٣) سورة التوبة آية ١١١.

قال القرطبي في أحكام القرآن: «أَصل الشراءِ من الخلق أَن يعرضوا عما خرج من أيديهم ما كان أَنفع لهم أَو مثل ما خرج عنهم في النفع، فاشترى الله سبحانه من العباد إِتلاف أَنفسهم وأموالهم في طاعته، وإهلاكها في مرضاته، وأَعطاهم سبحانه عوضاً عنها الجنة إِذا فعلوا ذلك. وهو عوض عظيم لا يدانيه عوض ولا يُقاس به»[1].

وهذا من القرطبي عظيم وهو تفسير لمعناها جيد ويقول الله عز وجل: ﴿يا أَيها الذين آمنو هل أَدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أَليم. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأَموالكم وأَنفسكم ذلكم خير لكم إِن كنتم تعلمون. يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأَنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم. وأُخرى تحبونها. نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين»[2].

ويقول تعالى: ﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أَموات بل أَحياءَ ولكن لا تشعرون﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ ولئن قُتلتم في سبيل الله أَو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون﴾[4].

ويقول تعالى: ﴿ولا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فى سَبيلِ اللهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ ربِّهم يُرْزَقُون فَرِحِينَ بِمَا آتاهُم اللهُ مِنْ فَضْلِه وَيَسْتَبْشِرُون بالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِم ولاَ هُمْ يَحْزَنُون. يَسْتَبْشِرُون بِنِعْمَة مِنَ اَللهِ وفَضْلٍ وَأَنَّ الله لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِين. الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لله والرَّسُولِ﴾[5].

---

(١) القرطبي ـ جـ ٨ ص ٢٦٧.
(٢) سورة الصف آية ١٠ ـ ١٣.
(٣) سورة البقرة آية ١٥٤.
(٤) سورة آل عمران آية ١٥٧.
(٥) سورة آل عمران آية ١٦٩ ـ ١٧٢.

وأمـام هذه الآيات العظيمة لا يمكننا رد هذا الخير العميم الذى تفضل الله به على المجاهدين. مادام لله.. إن القرآن عظيم ولم ينزل إلا لأمر كذلك وآيات الجهاد التى أخذت قدراً من القرآن لم تكن لتتلى فقط.

إن المسلم ليتصور هذا الدور الكبير الذى أدته آيات الجهاد في الأمة الإسلامية وكيف نفذ المسلمون الأولون أوامرها بتعقل وروية وتدبير كبير.

لقد وقع نظرى عند تدوينى هذه الرسالة علي بحوث قام بها بعض الأخوة الباحثين فرأيت الأغلب منهم عقد فصلاً لا بأس به في فضل الجهاد وهذا في الحق يكون تواتراً غير مقصود يدل على جلالة قدر هذه الفريضة.. فكيف يكون ترك الجهاد من مسلم عارف مدرك. وكيف يكون تركه له وقد عظم أمره هذا الدين. بل كيف ترك المتأخرون سنة الأولين من أصحاب محمد ﷺ، وهم قدوة الأمة. وعلماؤها وأعقلها وأفهمها للكتاب والسنة. الحقيقة أن الباحث ليقف أمام هذه المعضلة في حيرة من القول إذ لا يمكن وهذه حالة الواقع أن يُقال ما يُقال.. ولكن مابالنا ـ والعالم ـ اليوم في تيهٍ وسُباتٍ وموتِ شعورٍ بالْمسئولية.

إن هذا العالم الحديث المعاصر يحتاجُ إلى مَنْ يُوقِظه ليعرف رسالته في الحياة الدنيا ليعرف رسالته من جديد في هذا الحين المتدهور العصيب إنه ليس من العبث أن يُكثر الله تبارك وتعالى مِنْ آيات الجهاد في مختلف المواضيع. ولكنه الحق الذى قصرت عنه العقول.

لو فقه المسلمون واقعهم وما هم عليه وفقهوا بالتالى ضرورة الأمر لما كانوا على حال كهذه الحال.

إنه يكفي لكي يسير المجاهد صادقاً حسن النية أن يقرأ ما زخرت

به كتب الحديث والتفسير والفقه من عظيم الأمر للذين يجاهدون في سبيل الله لا يقصدون من وراءِ ذلك جاهاً ولا رئاسةً وإنما يقصدون أن تكون كلمة الله هي العليا وأن يكون الحكم في الأرض كلها لله سبحانه.

إن وقفه قصيرة على حياة الأولين[1] يُعطي هذا المفهوم القوى الذى كان مشعل نور وبرهان أمام من أراد السير في هذا الطريق. لقد جاهد الأولون جهاداً صادقاً حسياً ثم أدوا بعد ذلك جهاداً نفسياً ثم أدوا بعد ذلك جهاداً مُتدرجاً حتى كان آخر الأمر أن ذلت لهم الأرض ودان لهم من عليها.

إن فقدان الجهاد اليوم وقلة المجاهدين لم يأت هذا من طبيعة هذا الدين. ولم يأت أيضاً من قلة المسلمين فهذا وذاك لم يكونا في يوم من الأيام حجر عثرة في طريق الجهاد. إنما كان السبب في هذا هو انتشار مثل هذه المذاهب:

الشيوعية ـ الماسونية ـ العلمانية ـ القاديانية ـ القومية ـ العنصرية.
أضف إلى ذلك عدم رابط للمسلمين اليوم..
كذلك فقدان المسؤولية أو حتى الشعور بها.
كذلك المناقشات السطحية، والخلاف في الفروع بين علماءِ ومجاهدى المسلمين الذين مازلوا في أملٍ يحدوه أملٌ عريض.

وأخشى ما نخشاه أن تدوم هذه السمة. وأخشى ما نخشاه أن تتطبع القلوب على ترك الجهاد والدعوة إلى الله ومن ثم نتعلق بأذناب البقر ونرضى بالدينار والدرهم عن الجهاد في سبيل الله.

---

(١) راجع: طبقات ابن سعد ـ والحلية ـ وقادة الفتح: لمحمود الخطاب والاستعاب..

إن خطورة ترك الجهاد لا يقل خطورة عن قدح القادحين فيه الذامين له في كل العصور.. فما ترك الجهادُ إلا وكانت علامة كبرى تشير إلى الضعف والذلة والاستكانة.

التخلف عن الجهاد:

ولا جرم فإنه لا يتخلف عن الجهاد إلا من كان مُنافقاً وذلك إذا علم كل العلم لا بعضه أنه يجاهد كما كان يجاهد الرسول ﷺ، وأنه في طريق صحيح كل الأدلة تدل عليه وتدعوا إليه، أما إن كان مجتهداً في جهاده ودعوته ويتحرى في ذلك كله الصواب فيحسن به أن يلزم لئلا يكون لا سبيل له ولا غاية في الحياة وأما إلزامه نفسه بالجهاد والدعوة في زمن غير زمن الرسول ﷺ. وإن من يترك ذلك فهو مشكوك فيه ويجب الابتعاد عنه فهذا لم يكن معروفا عن سلف هذه الأمة ولا يقول به إلا قليل الفهم لمواطن الأدلة[1] ومعنى الاجتهاد. وأخذ الأحكام والتخلف عن «الجهاد» في عمومه مقبوح لا يصح من عاقل يشعر بحق أمته عليه لا سيماءَ عند الحاجة إليه ولو أخبر التاريخ والتفسير عن قوم تخلفوا عن الجهاد صالحين ومنافقين ووردت آيات في هذا الشأن كل هذا يدل على شدة وعظم مصيبة التخلف عن الجهاد وأنه ذنب كبير. فلا يتخلف عن الجهاد عادة مع السلامة والقدرة والقوة إلا من لم يؤمن بالله حقاً. أو عنده شك وريب مما جاءَ به الرسول ﷺ. وإلا فالمؤمن المصدق الموقن لا يتأخر عن منادى الجهاد في أى وقت يكون فيه الجهاد. ولقد كان الصحابة يتباشرون بمنادى الجهاد لعلمهم أن ما عند الله خير وأبقى. وأن الإنسان لا سبيل إلى خلوده، فالموت بشهادة في

---

(١) فكل داعية ينشد الحق ويبغيه سواء كان بمفرده أو مع سواه لا أظن أنهم يقطعون كل القطع بأن الحق ماهم عليه.. وغيرهم ليس بذاك.. بل هم ينشدون الحق ويسعون إليه مجتهدين.

سبيل الله لها منزلة عظيمة. حتى أن بعضهم كان يتمنى أن له أنفساً كثيرة لحلاوة ولذة الموت في سبيل الله..

ونهاية الإنسان لا جرم تكون عن طريق الموت باختلاف الأسباب بيد أن الموت بسبب الاستشهاد أمام الأعداءَ يكون خيراً من الاستشهاد في غيره.. ولا يذوق لذة ذلك إلا من أيقن وصدق بما عند الله من الفوز والرضوان.

الاستعداد للجهاد في سبيل الله



لقد قامت العراقيل أبداً والعقبات في سبيل الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام.. وقام في طريقهم وطريق أتباعهم من بنى الإنسان شيء كبير من أنواع العذاب والآلام.. وما رأينا في جنبات التاريخ المختلفة أن مجاهداً قام لله مجاهداً إلا ووضعت في طريقه الأشواك كى يتغير عن هذا الطريق وينحرف عن جهاده ليلوذ بالصمت دون جهادٍ.

إننا نرى المصلحين الذين عبروا هذه الحياة منذ أقدم عهود الإنسان قد لاقوا من أقوامهم شر معاملة... وأصعب تبادل على الإطلاق... إذ أن جهاده كان من أجل تحقيق أمر الله فكان ولا جرم قيام أولئك الأعداءَ سداً منيعاً أمام الدعوة إلى الله.. ومثال نضربه يقصر عنه كل مثال.. محمد ﷺ ذلك الرسول الصابر المحتسب الحليم.. فقد ذكر طائفة من المؤرخين الذين أرَّخوا له أنه لاقىٰ في الأذى في سبيل دعوته ولاقى كل منكرٍ من القول والعمل. حتى أن فاطمة رضـي الله عنها كانت تبعد بيدها عن ظهره الشريف ما كان يُلقى عليه وهو ساجد لله..

وكان في بيته يؤذى ويُعاند.. وكانت أم جميل امرأة أبى لهبٍ تضع في طريقه الشوك.. وكان يبصق في وجهه.. وكان يسخر منه.. وكان يقال له على سبيل التنقص: «أهذا الذى يذكر آلهتكم»: وكان في ذلك كله صابراً راجياً.. بل كان يقول: «عسى الله أن يُخرج من أصلابهم من يعبد الله»: وقد كان الله تعالى يرعى نبيه ويحفظه ويُسليه فقد جاءَ في القرآن الكريم قوله تعالى مطمئناً نبيه: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾.

ومع مرور الأيام كان النصر ورفعت أعلامه عالية خفاقة في أغلب بقاع الأرض.

وهكذا يكون الظفر حليف كل أناس يُجاهدون للهِ وليس من اللازم إمكان النصر في زمن من الأزمان بل يكفى أن يكون المجاهد جسراً تعبر عليه الدعوة إلى الله وهكذا دواليك حتى يقوم أمر الله.

والجهاد في سبيل الله كما يُعلم يتطلب من القوة والعدد والعدة ما يكفى للردع ومجاهدة المشركين والكفار وليس غير الله معيناً وممداً وناصراً...

والإمـداد من الله للمجاهـدين يكـون سبباً لردع المعتدين وبعثرة صفوفهم وتخريب خططهم... ومتى ما استعد المجاهدون في أى حين وجب عليهم إعـداد العـدة.. وطلب العـدو حتى يسلم أو يكـون القتال.. وهو الفاصل بين الحق والباطل إذا لم يكن بد من القتال..

وندخل هنا بعد هذه الإشارة البسيطة إلى صدد الحديث عن العدة والاستعداد.

يقول تعالى: ﴿وأَعَدوُّا لَهُمْ مَا أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوةٍ ومن رباط الْخَيلِ ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون﴾(١).

فقد روى ابن عباس أنه قال: القوة هنا السلاح(٢).

وورد في صحيح مُسلم عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: «وأعدوا لهم ماستطعتم من قوة ألا إن القوة الرمى ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمى»(٣).

(١) سورة الأنفال آية ٦٠.

(٢) القرطبى جـ - ص ٣٥.

(٣) القرطبى جـ ٨ ص ٣٥.. ويحسن الرجوع لكتب الحديث المطولة المتضمنة بعض أحكام الفقه.. كعمدة الاحكام وسبل السلام وعمدة القاري، وفتح الباري، وشرح النووي على مسلم.

ونحب أن نشير إلى بعض النقاط المهمة في مثل هذا المقام.

الأمر الأول: الإسلام حين جاءَ بأمره للعدة وبالاستعداد التام يريد بذلك تحقيق أمر الله في الأرض.. وأيضاً فالجهاد ضرورة تقتضيها حاجة الإنسان وإن لم يدركها هذا الإنسان.

الأمر الثانى.. ليس المراد من الأعداد للجهاد الإرهاب إنما المراد من وراءِ ذلك لكى يدخل الناس في دين الله. فالإعداد وسيلة توصل المجاهد إلى إنقاذ الإنسان من كل معبودٍ غير اللهِ.

الأمر الثالث... القتال في الإسلام ليس كأى قتال عُرف من خلال الحروب البشرية بل هو قتال رحمة وإنقاذ.

الأمر الرابع... الإسلام في دعوته لا يحصر الإسلام في مكان ضيق بل هو لبنى الإنسان عامة فالمقدم فيه التقى مهما كان جنسه ووطنه ولغته.

وبعد هذا نريد إيراد مفهوم الحديث «ألا إن القوة الرمى» لئلا يشكل معناه والمراد منه:

فالرسول هنا قال: «القوة» ثم قال: «الرمى» وأطلق القوة ولم يقيدها ولم يبين نوعها للوقوف عند ذلك والمعنى المراد من هذا الحديث: أن القوة ليست وقفاً على نوع معين من السلاح أو العتاد بل هذه القوة عامة للسيف والطائرة وعابرة القارات والمدافع وغير هذا مما يدخل تحت معناة من أى قوة تكون إلى آخر الزمان.

والاستعداد بها في الطوق فريضة تصاحب فريضة الجهاد وتلازمه وتكون معه.. ومن تتبع النص القرآنى يرى أن الآية.. ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾. تأمر بإعداد القوة على اختلاف صنوفها وألوانها

وأشكالها إذ أن هذا من مهمات الاستعداد[1] في الجهاد وعليه يتوقف النصر. وتذكر الآية رباط الخيل وذلك لأنها كانت الأداة البارزة عند من كان يخاطبهم القرآن فلو أنهم أمروا بإعداد أسباب لا يعرفونها في وقتهم آنذاك مما سيجد مع الزمن لخاطبهم بمجهولات مُحيرة. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً"[2].

والإسلام لابد له من قوة: ينطلق بها في الأرض قوة جبارة لا تقهر ولا يمكن أن تغلب وأول ما تضعه هذه الآية الشريفة أمام المجاهدين في حقل الجهاد والدعوة.

أولاً: «أن تؤمن الذين يختارون هذه العقيدة على حريتهم فلا يصدوا عنها»[3].

ثانياً: «أن تُرهب أعداء الدين وتجاهدهم وتطالبهم في ديارهم ليسلموا أو يقتلوا وكذلك تكون العدة تخويفاً لهم لئلا يفكروا في الاعتداء على دار الإسلام ـ التى تحميها تلك العقيدة»[4].

ثالثا: «أن يبلغ الرعب بهؤلاء الأعداء أن لا يفكروا في الوقوف في وجه المد الإسلامي وهو ينطلق لمجاهدة الكفار»[5].

رابعاً: «أن تحطم هذه القوة كل قوة في الأرض تتخذ لنفسها صفة الألوهية، فتحكم الناس»[6].

---

(١) ظلال القرآن جـ ١٢ ص ٤٨.

(٢) ظلال القرآن جـ ١٢ ص ٤٨ بتصرف.

(٣) المصدر السابق بتصرف.

(٤) المصدر السابق بتصريف.

(٥) ظلال القرآن جـ ١٢ ص ٤٨.

(٦) المصدر السابق ص ٤٩.

«قوى الاستعداد»

يتضح مما سبق من الآيات عموماً ومن الأحاديث الواردة في الحث على الجهاد أنه لابد من إعداد القوة. . والقوة التى أمر الله بها وأمر رسوله ﷺ: نوعان ويأتى القول عنهما مُبسطاً حيث يتبين لنا كيف كان الإسلام سابقاً جميع فنون وخطط ودراسات الشئون الحربية لملاقات العدو، ويتضح من خلال عرضنا لهاتين القوتين أنهما قوتان أدتا دوراً بارزاً في حياة المجاهدين في أمة الإسلام. . وبدون قوة يمكن القول أن الإنسان مُجرداً يضعف عند الجد وملاقات الخصوم. . فإن التحدى والاعتزاز بالنفس وادعاءَ الجلد والصبر وعدم الاهتزاز كل هذا يتغير عند وقوع الأمر والإحساس به وذوق ألمه وآلامه. . والإنسان ضعيف. . متى لم يطعم الحقيقة فإذا ذاقها كان ضعفه أضعف، وهذا شاهدة التجربة والأخبار الواردة المتواترة، بيد أنى أقول يندر من بين الرجال من لا يتغير في مواقفه كلها وهذا هو ما يجب أن يكون في المجاهدين أصحاب الحق في كل العصور.

أما القوة التى نذكرها فتنقسم إلى قسمين أو هى قوتان مُنفردتان تتلازمان في ميادين الحرب والسلام.

١ ـ «القوة المعنوية»

ونريد بالقوة هذه. . تلك القوة التى تغلغلت في نفوس قوم الصدر الأول رضي الله عنهم حيث قدمن الله عليهم بها. فساروا فاتحين الأرض. . في قليلٍ من السنين، إنها قوة قصرت عن بلوغها قوة الإنسان وطاقاته وما توصل إليه في عصور كلها من علم، وتقدم، واختراع، وإيمان معنوىً بالمحسوسات. .

ومن الصعوبة القول بالنفع عن طريق القوة الحسية ما لم تُرافقها القوة المعنوية . .

إن هذه القوة العظيمة قد قُسِّمت إلى أَقسام عدة كلها تهدف غرضاً واحداً ولا كلام. القول فيها يحتاج إلى بيان فإليه إذاً على بركة الله.

أولاً: الإيـمان بالله . . إن الإيـمان بالله وحـده يكفل للمؤْمن نصراً مؤزراً، إن القوة المادية بقوتها الظاهرة مهما عظمت وروعت الناظر إليها لا تكفى للنصر ولا تعطي قدراً من الصحة المؤكد بفوز وانتصار صاحبها.

فنحن نعلم ولا نشك بمدى نصر الله وإعانته وإمداده للمؤمنين به فهو ينصرهم ويؤيدهم ويقويهم ويخذل أعداءَهم ويقطع دابرهم ويجعل فيهم الجبن والخوف والهلع والتردد والتفرق والاختلاف.

ومن جانب آخر فالله سبحانه وتعالى يسخر مخلوقاته لصالح المؤمنين من حرٍ وبردٍ ورياحٍ وعواصفٍ وظلام وبرق.

وكذلك يقوى عزيمة من يؤمن به ويعتمد عليه ويسأله ويرجوه.

وخير ما يستند إليه في ذلك وإن لم يحتج هذا إلى إستناد، صحابة رسـول الله ﷺ كيف انتصروا وهم في قلة من العـدد والعـدة كيف انتصروا على عدد عظيم وعـدة فائقـة يحسب لها أَلف حساب كيف انتصروا وعـدوهم قدره لا يُقدر. . إن الإيمان بالله والجهاد في سبيله وطلب ما عنده وإتباع سبيل رسوله أبداً عامل غير موزون إذ لا ميزان يزنه ويقدره ويعرف ثقله رجحانه فيه.

وشئٌ آخـر دوره مُهم في هذا عمل الرسول ﷺ وكيف كان يُثير الجانب الروحى ففى غزوة بدر مثلاً وقف عليه الصلاة والسلام يذكى

نور الإيمان ويشعل حماس الدين القوى في نفوس أصحابه عليهم الرضوان وذلك بقوله: «الجنة تحت ظلال السيوف، قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، والذى نفسي بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة». ورغبة في ذلك قال عمير بن الحمام لما سمع هذا النداءَ بعد أن رمى تمرات كانت بيده كان يأكل منها إنها بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاءِ إنها لحياة طويلة واندفع إلى قلب المعركة فقاتل حتى قتل شهيداً». رضي الله عنه.

إن الإيمان بالله يُعتبر في كل مجالات الحياة سلاحاً ماضيا لا يقف في وجهه عدو أو خصم...

إن هذا العمل من الصحابة وهذه الفعلة من الإيمان بالله وحده لجديرة بالوقوف أمامها طويلاً ودراسة ذلك بعمق ودراية وخبرة. والخروج من ذلك بنتيجة فعالة يكون بعدها ما يكون من اقتداءِ المقتدين في القول والعمل والسلوك إن هذا الإيمان العميق واليقين الصادق والعمل المخلص والاتباع السديد هو الذي دفع هؤلاءِ الكرام إلى بذل النفس والمال والولد والعشيرة في سبيل الله.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وتَتقُوا وَيَأْتُوكُم من فورهم هذا يُمِدَدْكُم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز. الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾[2].

---

(١) سورة آل عمران ١٢٥.

(٢) سورة الحج آية ٤٠، ٤١.

ويقول تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون[١]﴾.

وبجانب هذه التقوى وهذا الإيمان.. لا تُغفل جانب شرٍ خطيرٍ وهو جانب المعصية فإنها من أدوار انهزام الإنسان أمام خياله بل أمام الظنون والأوهام.

يقول تعالى: ﴿أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا..؟ قل: هو من عند أنفسكم﴾[٢].

وجاءَ في كتب التاريخ وتناقلت كتب الأدب وصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه. يقول ونعم ما يقول.

«أما بعد فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال.. فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى في الحرب وآمرك ومن معك أن تكون أشد احتراسا من المعاصي منكم من عدوكم. فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما يُنصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا بالقوة، وإلا نُنصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا فاعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون فاستحيوا منهم. ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله ولا تقولوا: إن عدونا شر منا فلن يُسلط علينا. فرب قوم سُلط عليهم من شر منهم كما سلط علي بنى اسرائيل لما عملوا بمساخِط الله».. ثم قال ونعم ما قال: «واسألوا الله العون على أنفسك كما تسألونه النصر على عدوكم الخ»[٣].

(١) سورة آل عمران آية ٢٠٠.

(٢) سورة آل عمران آية ١٦٥.

(٣) العقد الفريد جـ ١ ص ٣٥.

وصيةٍ فوق الحكيمة يقولها رجل مُلهم من الرجال وكان هذا دأبه مع قواده وأُمرائه، وهذه قد قالها للصحابى الجليل القائد المظفر سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه حين سيره بجيش المسلمين إلى العراق وقواد العرب اليوم لو درسوا هذه الوصية وطبقوها على أنفسهم بادىء ذي بدءٍ لم أشك في تغير وجه التاريخ وصفاته ومعالمه ولبدأ المؤرخون يؤرخون كما لو لم يكن هناك فاصلاً بين القرون والعهود..

الهدف :

الهدف ثانى القوى المعنوية على وجه التقريب.. فإن المجاهد في سبيل الله عندما يُدرك هدفه الذى يسعى إليه ويُطالب به يهون عليه من ثم الجهاد ولقاءُ الأعداء.

إن كثيراً من المقاتلين في الأمم الغابرة لما لم يكن لها هدف يصبون إليه من وراءِ حروبهم.. رأيت كيف كانت حروبهم همجية إلى أبعد الحدود.. وكذلك كل أمة لا هدف لها فإن قتالها يذهب أدراج الرياح.

إننا حينما ندرس الإسلام وحياة المجاهدين المؤمنين بالهدف الساعين إليه.. سوف ندرك سبب كون النصر كان بجانبهم، لقد آمن الصحابة بهدفهم فكتب لهم النصر العظيم.

إن الهدف يجب أن يكون هو إعلاء كلمة اللهِ وطرح كلمة الباطل وقد ورد في ذلك قوله تعالى: ﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله. والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياءَ الشيطان. إن كيد الشيطان كان ضعيفا﴾[1].

---

(١) سورة النساء آية ٧٦.

إن يقين الإنسان بهدفه لابد أن يكون مع الساعى وإلا ذهب سعيه أدراج الرياح.

لقد كان الرسول ﷺ فرداً واحداً وما زال يسعى نحو هدفه العظيم حتى كون هذه الأمة الضاربة في شعاب الأبد..

ونحن نرى في حياتنا الدراسية.. والعملية والإدارية أن هدف كل واحد معلوم فهو يدأب لا يألو في ذلك جهداً حتى يُحقق هدفه ويرتاح إليه.

كذلك المجاهد فرداً أو جماعة كلهم يسعى إلى الهدف ويريد تحقيقه وإنجازه والوصول إليه والارتياح له..

ولما كان الهدف في الحياة الدنيا أن يعمل العبد فيها خيراً مُخلصاً صواباً موافقاً فهو دائمًا يراعى أعماله وأقواله ليتحقق الهدف في الحياة وبعد الممات.

وكذلك يجب بالنسبة لمن اختاره الله لنشر دينه وإعلاءِ كلمته ودعوة الناس إلى الحق وجهادهم من أجل ذلك.

الأجل:

الأجل ثالث القوى المعنوية وهو دعامة كبيرة للمجاهدين وسبيل منظور وعمل رفيع يجب أن يكون. وفي دراسة الدارسين الذين درسوا حياة الصحابة بإمعان جيدٍ مركزٍ مفهوم خير شاهد يؤخذ به ويُنقاد إليه فلننظر كيف كان استقبالهم للموت.. وكيف أقدموا عليه وهو ختام الحياة الدنيا للإنسان.. لقد علم الصحابة ومِنْ بعدهم المؤمنون أن الأجل والحياة والموت والغنى والفقر كل هذا بيد الله وعلمه إليه.. آمن الصحابة بذلك وآمنوا من قبل بوعد الله..

والإنسان عندما يؤمن بالأجل يهون عليه الجهاد بل يحلوا له ويطلبه ولا ينظر إلى ما في النفس الإنسانية من طبيعة الخوف والهلع ورعب ملاقات الأقران، إن المسلم إذا آمن بأجله وعرف أن كل ما يجرى عليه ليس في طاقة إنسان أو علمه حينئذ لا يُغير طبيعته إلتفاتاً أو ينظر إلى ما فيها من خصال حب البقاءِ والحياة.

منزلة الشهيد:

للشهيد عند الله منزلة بعد موته لا توازنها إلا منزلة الرسل عليهم السلام.. فالشهيد قدم نفسه راضياً بها عند الله مطمئناً محباً له موقناً بما عنده من نعيم دائمٍ لا يزول عالما أن ما عند الله خير مما في هذه الحياة من نعيم زائل مشينٍ كذلك كانت حياة الأصحاب عليهم الرضوان.. لقد آمنوا بمنزلتهم عند الله بعد استشهادهم وفي ذلك جاءَ قوله تعالى مبشرا ومؤكداً ومخبراً خبر صدق أكيد: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يُرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[1]. ويقول تعالى: ﴿قل: هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين. ونحن نتربص بكم، أن يصيبكم الله بعذابٍ من عنده.. أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون﴾[2].

ورُوى عن رسول الله ﷺ مُخبراً عن إخوانهم الذين استشهدوا: «أن أرواحهم في حواصل طير خضر تاكل من ثمر الجنة وتشرب من أنهارها وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش».

---

(١) سورة آل عمران آية ١٦٩ و ١٧٠.

(٢) سورة التوبة آية ٥٢.

لذة الجهاد:

المجاهدون في سبيل الله أياً كانت طريقتهم في الجهاد يجدون لذة عظيمة في ذلك.. فهم يشعرون دائما أنهم يؤدون عملاً لا يؤديه إلا أفضل الخلق.. ويؤدون عملاً ليس بعد الموت في سبيل الله عن طريق الجهاد إلا الجنة.. فهم في حياتهم يجاهدون في كل يوم في كل ساعة حتى يصلوا إلى درجة تحقيق معنى «خيرية الأمة وهذه على كل حال درجة يُغبط عليها من يدخل في مسماها.

ونظرة سريعة لما ذكر من القول عن القوى المعنوية تظهر لنا تلك القيمة العظيمة لهذه القوة التى أدت مفعولها في العصور الأولى من عمر الإسلام المديد.. وإنك إذا سرحت النظر في حروب طارق بن زياد وصلاح الدين وعماد الدين زنكى تجد القوة المعنوية أدت دورها في حياتهم كأقوى ما تكون.

وليس العالم الإسلامي بمثل حاجته إليها إذهى كفيلة بعد توفيق اللهِ ونصره بالفوز والعلو للمسلمين في الأرض بحق وجدارة وربح فريد.

إن العالم الإسلامي محتاج إلى هذه القوة وبحاجة إلى الجد في السعى للحصول عليها عن طريق التربية المستديمة والصلة بالله وصدق النية وحسن العمل ومحبة الخير لعامة الناس وربط الناس بعضهم ببعض وإنا لنرجوا أن يتحقق ذلك على أيدى العاملين في كل العصور.

٢ ـ «القوة المادية» ـ:

تعتبر هذه القوة الثانية في تاريخ جهاد الإنسان وبطولته في ميادين المعارك والحروب.. وهى قوة لا يستهان بها في حياة المجاهدين عبر العصور ويأتى دور هذه القوة في المرتبة الثانية إذ أنها لا يمكن الاعتماد عليها قبل أن يعتمد على قوة هى أقوى منها واقوم في مجال الحرب مع

النفس والعدو على السواءِ ونحن نرى في الحضارة الحديثة اعتماد القوم على هذه القوة دون القوة الأولى وذلك هو سبب الإفلاس الذى مُنيت به هذه الحضارة إذ الذى شاهدناه وقرأنا طرفاً منه في حروب اليوم التى خلت منها القوة المعنوية نجد أن هناك ضرباً من الجنوح البشرى إلى الميل والهوى وهذا ولا جرم يكون سببا في ضياع الإنسان وقلقه وتعلقه بالحياة وما فيها من مغريات ورغبات وأيضاً فإن هذا داعياً إلى سير الحياة المعاصرة إلى دمار بعد دمار وهى كذلك حسب الدراسات والمشاهدات.

ونحن الآن في سبيل إيضاح بعض الأقسام للقوة المادية لندرك قيمة هذه القوة في الحياة وندرك أن تركها من أسباب عدم الانتصار.

توفير المال :-

توفير المال للقوى المحاربة في سبيل الله وبذله بسخاءٍ لتزويدهم بما يحتاجون إليه من قوة مختلفة.. وذلك لتوطيد النفس وقوة العزيمة والثقة بأن معهم من النفقة ما يكفيهم إذ قوة عظيمة في مثل هذه الميادين التى يكون الإنسان فيها قوياً مُستطيعاً.. ولقد أمر الله تعالى عباده المجاهدين إلى هذا الأمر وندبهم إليه لأن بذل المال للمجاهدين يؤدى عملاً كبيراً في مجال الظفر على الأعداءِ.

يقول تعالى: ﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾[1]. ويقول تعالى مبيناً أن ترك الجهاد سبب للهلاك: ﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾[2].

وقال في الترغيب في الإنفاق والبذل ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في

(١) سورة التوبة آية ٤١.

(٢) سورة البقرة آية ١٩٥.

سبيـل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة والله يُضاعف لمن يشاءَ والله واسعٍ عليم﴾[١]. وقال ﷺ: «من جهز غازياً فقد غزا. ومن خلف غازياً في أهله بخير فقد غزا»[٢].

ومن أقـوالـه أيضا «أن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة صانعه يحتسب في صنعه الخير والرامى به ومنبله». رواه أبو داود وفيه نظر.

وقوله ﷺ: «أفضل الصدقات فسطاط في سبيل الله ومنحة خادم في سبيل الله، أو طروقة فحل في سبيل الله»[٣].

ولقد سجل التاريخ الإسلامى في غضون عصوره أيام الجهاد والدين الحق بذل كثير من المسلمين للأموال والأنفس.. طلباً لما عند الله والدار الاخرة وذلك تقوية للجهاد في سبيل الله حتى يقوم الباذلون بالواجب على وجه مطلوب.

ففى غزوة تبوك.. دفع أبو بكر ماله كله، ودفع عمر نصف ماله، وجاءَ عبد الرحمن بنٍ عوف بأربعة آلاف، وتبرع عثمان ابن عفان بعشرة آلاف.. وقال: عليَّ جهاز من لا جهاز له وتلك بحق طبيعة المؤمن المُحتسب الـذى يَعلم قدر البـذل والنصح لإخوانه المجاهدين الذين يقومون بدعوة الناس وإدخالهم في دين الله.

والتـبرع والبذل من أبواب الشهادة على حسن نية الدافع وصدق إيمانه، ومدى محبته للخير وطلب ما عند الله..

---

(١) سورة البقرة آية ٢٦١.

(٢) رواه البخارى ومسلم.

(٣) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

تدريب المجاهدين:

لكى تتم القوة على مجابهة الأعداء وملاقاة الخصوم في مواطن الجهاد لابد من تدريب على الأعمال الحربية المستخدمة في الجهاد حتى يمكن الدخول إلى خضم المعركة والمجاهد آمن مِنْ أنه سيقوم بما يستطيعه من قتال في سبيل الله ومن الصعب على المجاهد في عصر ما دخوله دون تعلم أو تدريب.. من أجل ذلك فقد أوجب الله تعالى وأوجب رسول الله ﷺ التعلم على معرفة استعمال قوى الأرض وما فيها من خزائن تستخدم في مجال الحروب وغيرها.. يقول تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾[1].

وترى الآية الكريمة كما سبق القول عنها عامة في الأمر بإعداد العدة والقوة ولم تشر إلى نوع معين من أنواع السلاح بل جاءت كلمة «قوة» منكرة ليكون هذا عموم كلام يدخل فيه غيره وكذلك جاءت هذه الكلمة لتكون عامة لجميع أنواع آلات الحروب مما يصنعه الإنسان ويخترعه في كل العهود وتدريب المجاهدين البدائيين يكفى عنه السباق.. والسباحة. والرمى.. وقيادة الطائرات.. شريطة أن يكون المجاهد مُلتزماً بطريقته جاداً بأخذه بها لا يعمل شيئاً على حساب الدين أو يكون خاضعاً ذليلاً لمن يقوم عليه بتدريب وتعليم ويحسن أن يكون المجاهد عاقلاً حكيمًا ليكسب بحسن أخلاقه وتواضعه عواطف الناس وقلوبهم وأجسامهم.

الصحة من الأمراض:

صحة الإنسان وسلامة جسمه ونفسيته وعقليته وشعوره وسلامته من

(١) سورة الأنفال آية ٦٠.

الأمـراض كل هذا يُعـبر من شروط أسـاس دخـول المجـاهد سلك الجهاد.. وكذلك يحسن أن يكون جهاده حسب قدرته ومعرفته وحسب إمكانه ورغبته لئلا يُصاب بمخالفة مراده الباطنى ونفسيته فيكون بمنزلة المريض الذى يحتاج إلى علاج ولا علاج.. وقد أرشد النبي ﷺ أن المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف وفي هذا دلالة على أهمية أمر المجاهد وصحته التى هى عدته وزاده أمام الأعداءِ في كل ميدان.

يقول ﷺ: «المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف» أما من لم يقدر على مجابهة الأعداءَ وجهاً لوجه ولا يقدر على المقارعة كالضعفاءِ وصغار السن والمـرضى ومن به علة كالعمى والعـرج فقد عذرهم الله تعالى وجعل لهم عملاً ومجالاً أرحب وأوسع قد يكون أعظم في بعض الأحيان من بعض درجـات الجهـاد لهم مجال.. الـرأى، والفكر، والكلمة، ورعاية أسر المجاهدين، ومداواة مرضاهم وتتبع الشائعات وقتلها في مهدها، والتضيق على المنافقين والمرجفين الذين يحاولون في كل حين أن ينشروا التشويش ويهونوا من قلة المسلمين.. وهؤلاءُ ونحوهم يعتبرون في بعض الحـالات أشـد خطراً من العـدو وذلـك إذا كان هذا بعد تخطيط.. وقصد وسوءِ نية.. ومحبة لغلبة الأعداءِ على المسلمين.

وقد دلت حوادث التاريخ على نوع من هذا العمل كان له الفعل الكبـير في التشويش على المسلمين.. ولم يرده إلا الثقة بالله والإيمان الأكيد الصحيح.

القيادة:

من العسير جداً في الأوضاع البشرية المختلفة حتى في المجتمعات الفاقدة للدين أن يسيروضع البشر بهدوءٍ أو نظام دون أن يرجع هؤلاءِ البشر إلى قيادة واحدة تخضع لها القوى وترجع إليها.. ومجال المعارك التي هى الشيء الوحيد في لزوم القيادة وتنفيذ أوامرها.. لاجرم يكون

الخضوع والانقياد أمراً واجباً على كل مجاهد من المجاهدين المؤمنين ومن تفاصيل التاريخ في الغزوات والمدينة نجد أن الرسول ﷺ كان هو القائد.. وتبعاً لهذه القيادة كان النظام سارياً على خير ما يرام.. إذ أن هذه القيادة وذلك النظام كانا يصدران عن حق عظيم متبوع.

والقيادة بعد هذا وذاك أمر لازم للنظام وما فقدت القيادة الصالحة في أمة من الأمم إلا كان طريقها التفكك.

ولقد ركز القرآن الكريم على دور القيادة وأبان خطورة فقدان القيادة كما دل الرسول ﷺ على ذلك وأمر به ولو كان المتأمر عبداً حبشياً. فلزوم القيادة واجب على المجاهدين في سبيل الله.. ولولاها لفقد النظام والاستقرار. القيادة هنا لا نعنى بها اختيار المسلمين للقائد وترشيحهم له بل القائد نفسه يبرز أمام المسلمين ليقول بلسان الحال أنا قائدكم بما وهبه الله من خصائص فطرية.

فالقيادة أولاً وقبل كل شيء موهبة من الله وصفات تكون في بعض الرجال.. فترى القائد ولو لم يرشح نفسه يكون كلامه وعمله وتدبيره أقرب إلى الصواب من الكثير وذلك أن القادة في الأمم لهم مميزات فريدة ذكروا منها:

١ - قلة الكلام.
٢ - كثرة العمل.
٣ - قلة الضحك.
٤ - ترك وتجنب المزح والهزل.
٥ - إثارة الجد في كل موطن وعلى كل حال.
٦ - حب الخير وسلامة القلب من الحسد والحقد والتنقص.
٧ - السكينة والهيبة الطبيعية[١].

---

(١) يعاد في هذا إلى ماذكره. أبو هالة.. عن الرسول في الصحيحين.

بعد هذا القول عن هاتين القوتين اللازمتين للجهاد في سبيل الله لا يمكن معهما قول شيء آخر يمكن أن يكون بجانبهما يؤدى ما يؤديانه من أفعال.. وما ذهب إليه: «بروكلمان» و «جب» يخالف ما حققه التاريخ بالتواتر من أن القيادة غير لازمة - قول باطل مرفوض، وأميل أنا كاتب هذه السطور إلى أن هذا القول من دسائس المبشرين الذين يحاولون إيجاد الفوضى بين المسلمين ليتمكن الأعداءَ حينئذ من قيادة العالم، وهذا قد فسره بروتوكولات حكماءَ صهيون في خططهم وتدابيرهم وأعمالهم الملتوية المعروفة.

ولندع هذا وأمثاله فإن المسلم يدرك حقيقة لوازم الأمر الصحيح في دين الإسلام عن طريق تعاليم رسوله الأمين.

لندع هذا كله وأمثاله. ولنذكر: أن الحضارة الحديثة لم تر في القوى شيئا ذا بال خاصة القوة المعنوية.. ولكن هذا لا يعنى أبداً استغناء القوم عن هذه القوة.. ففى حالات الأمراض الدائمة المستعصية والصدمات المخيفة.. نرى هؤلاءِ يلوذون عن طريق غير مباشر ومباشر إلى الله وهذا لا يعنى أيضاً أنهم يعتمدون على القوة المعنوية أو يلتمسونها بل إنهم يتركونها مع معرفتهم بضرورتها وفعاليتها ومدى نجاحها في القهر والرد والنصر.

ونحن بعد هذا نُريد الخلوص إلى القول أن الإسلام في قوتيه وقواه جميعها قد أتى بنجاة «الإنسان» وتخليصه من مسالك الأعوجاج في السبل كلها حتى إذا ما وصل إلى الله تعالى وإذا هو بمنة الله قد سار على الطريق المرسوم له والمحدد قال تعالى: ﴿وأن هذا صراطى مستقيمًا فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون..﴾.

وجملة قول ما يمكن أن يقال في ذيل هذا الفصل أن نقول: إن الإنسـان لن ينتصر على عدوه ما لم يكن لديه قوة يعدها لمواقفه أمام الأعداءَ.. ولعل من الطيش الكبير أن يكون الإنسان فاقداً للشجاعة المعنوية والثقة التامة إذا كان من دأبه ملاقات الخصوم.

والإسلام قد أعد نفسه من قبل ومن بعد لمجاهدة الأعداءَ قاصداً من وراءِ ذلك تحكم شرع الله.. ولا يكون الإسلام في بهذه المثابة ما لم يكن مُعداً نفسه بعدةٍ عظيمةٍ بسببها انتصر كل هذا الانتصار وفي هذا رد على «ماركس». و «ما تونغ» ومن بعدهما «بول سارتر» الأديب الوجودى الضائع «وماسينون» الذين نفوا القوة المعنوية ورفضوا وجودها ودورها في الحياة.. وهذا منهم يدل على سوءِ مقصد وهو بالتالى على حمق كبير.

طبيعة الجهاد في الاسلام

من حين نزول القرآن الكريم والسنة المطهرة والعلماء المسلمون في مختلف العصور الإسلامية يتلون هذين المصدرين ويعملون بهما بقبول حسن وصدر رحب ونفس قابلة راغبة.

إن هذين المصـدرين العظيمين الكتاب والسنة هما المرجع في هذا الدين للصدور عنهما في الأحكام الشرعية المختلفة [١]. والذى عليه الأمة أن الكتـاب والسنـة مرجـع المـراجعين ولا يجوز الرجوع لغير النص الشرعي في تحقيق أمر من الأمور الدينية أو الأمور الدنيوية على السواء إذ لا فرق في هذا الـدين وبـين الـدين والـدنيـا في مسائل الأحكام والتشريـع ذلـك لأن صلاح الدين يتبعه صلاح الدنيا فهذه الشريعة جاءت لصلاح الأحوال وتقويم الحياة.

ونريد من هذا الذهاب في القول إلى أن الآيات والأحاديث الواردة في مسألة الجهاد لا يمكن تأويلها أو محاولة تفسيرها هكذا دون حجة ناهضة أو برهان قائم ولا يمن إخضاع الآيات وأدلة السنة الصحيحة لتطور الأزمنة وتغير الأحوال عند الأمم، فإن الأزمنة والعصور تتبع الآيات على كل حال، ومن الجرم بمكان تغيير هذا وإخضاعه للعصر أياً كان إدعاء القوم أن هذا يجب أن يكون ويتطور ويجارى مسالك القرون. وهذا فيه ما فيه من الجرأة الجاهلة الشيء العظيم . والذي يجب من قبل المسلم في كل حين هو: الفهم العميق لمسائل الاعتقاد ومقتضى الأدلة ومن ثم هدف الخصوم من وراء كل ما يقومون به من القول والعمل.

لقـد كنت قبـل بحث مسـألة الجهاد مطمئناً إلى أننى سأوفى هذا البحث حقه لكني أطلعت على بحوث لم توف هذه المسألة حقها من

(١) من مصادر التشريع: الاجماع.

حيث الفهم الشرعى لطبيعة الجهاد ومشروعيته ولكن بعد هذا الاطلاع وقفت تلك الوقفة.

ولست بملق كثير بال ازاء هذه البحوث لأنها لم تقف على الحقيقة من خلال النظر المراد لفهم طبيعة الجهاد في الإسلام كما في الادلة. الواردة في الكتاب والسنة.

ولست بمحمل اللوم إلا على ذلك الجازم القاطع أن الجهاد في الإسلام دفاع وكفى[1]. وأغلب الظن أن من كتب في هذه المسألة من الكتاب والمثقفين وكتبة التاريخ في العصر الحديث وقالوا بدفاعية الجهاد فقط إنما أملى ذلك عليهم مجرد النقل السردى وإلا فهذا أمر نظره يتطلب الاستقصاء والبحث من حيث نظر الادلة ودارستها والوقوف على مراحل الجهاد والنسخ والتقييد والتخصيص.

وإنني لا أعجب من كثير من باحثى هذه المسألة بقدر ما أعجب من بعض كتاب «الفقه الإسلامى» الذين قالوا بمسألة الدفاع في الجهاد في الإسلام جرياً وراءَ التقليد والإعجاب بالأعداءِ.

«وهم والله أعلم» يدركون خطأ هذا الرأى البعيد عن الصواب وزلة الأحكام.

... إذاً سأتناول هذه المسألة تناولاً حسب قدرتى وطاقتى مرتباً هذه المسألة على حسب ما رأيت راجياً من الله العلى القدير كل هداية وصواب.. مُتمسكا بما أقوله معتمداً علي الله راجياً أن تكون هذه المسألة من أسباب الأخوة بين الباحثين في أمة الإسلام وأدعو المخالفين

(١) كما تقدم القول وكما سيأتى فإن الجهاد يكون دفاعاً في حال أو حالات وكذلك يكون ابتداءً وطلباً.

إلى التدقيق إذ أننا اليوم أحوج ما نكون إلى ذلك لا سيما والحضارة الحـديثـة قد عطلت أحكـام الإسـلام. وجعلت من هذا الدين شبه مشوشٍ على كثير من المسلمين المبتعدين عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

لقد قام الاستعمار والتبشير منذ أمدٍ بعيدٍ على محاربة أحكام الإسلام وفرائضه. وأخص ماقام بحربه وبعث الشكوك والأوهام حول فريضة الجهاد في سبيل الله. وذلك لأنهم يدركون طبيعة الجهاد ونتائج الجهاد وثمراته.

ولقد سعى هؤلاءِ إلى بث الظنون الكاذبة تجاههِ من أجل الوصول إلى تعطيله وتقليل منزلته في النفوس.. والأدهى من ذلك أن الاستعمار والتبشـير قد أوجـدا رجـالاً من المسلمـين ينادون بما ينادى به هذان الخـطران. فلقد ظهر في حدود النصف الثانى من هذا القرن أناس يدعون إلى تعطيل الجهاد ولقد ألفت الكتب من أجل ذلك.. بل لقد أوجـدوا أنـاسـاً ينادون بالغائه والولاءَ للاستعمار كما فعل أحمد غلام القاديانى وأتباعه في العصر الحديث. وهذا العمل منهم جميعاً يدل على مرونة هذه الفريضة ويدل كذلك على أنها بحمد الله لم تزل في طريقها إلى الظهور ذلك أن كل شيء يُحارب ويطعن فيه فإنه يدل على قوته وشدته ومكانته وكذلك الجهاد في سبيل الله.

واليوم يجب على العالم الإسلامى أن ينظر إلى الجهاد على أنه حقيقة ضرورية لنقل الإنسان من الشك والحيرة والعناد..

وكما هو معلوم فإن الجهاد ليس إلا رحمة بهؤلاءِ الكفار الذين يُطالَبون بالدخول في دين الإسلام فيكون لهم ماللمسلمين وعليهم ما عليهم ومادام الجهاد معطلاً أو لايُعار إهتماماً أو لا يلقى له أى بال فإن هذا يعنى إخماد روح الشجاعة والأخوة والألفة بين المسلمين والجهاد متى. عُطل أو فقـد من هذا الـدين، فلا جرم يكون المسلمون قد أهملوا

فريضة عظيمة وهذا هو الذي يسعى إليه الأعداءُ في كل مكان مُتمثلاً هذا العمل منهم في عموم الثقافة العربية المعاصرة التي تنادى اليوم بترك تعاليم الإسلام إذ لم يعد في نظرهم صالحاً وإنما هو لقرون خلت ويستطيع القارىءِ أن يعرف هذا عن طريق كتب: ميخائيل نعيمة، وسلامة موسى، وساطع الحصرى، وشعر نزار قبانى، وسعيد عقل، وأغلب شعر محمود درويش.

مع المسألة:

تتبع فقهاءُ الإسلام أدلة «الجهاد» وبينوا ذلك بعد دراسة واسعة.. ووضح من دراستهم وتتبعهم للأدلةِ المختلفة أن أدلة الجهاد عامة مُطلقة تشمل الحرب الدفاعية وتشمل المباداًة والهجوم والطلب والحرب الوقائية وغيرها.. فالآيات التي بحثها فقهاءُ هذه الأمة تشمل القتال بجميع أنواعه لورودها مُطلقة عامة. يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى مُقرراً طبيعة الجهاد وأنه يعنى الطلب.. «العقوبات التي جاءَت بها الشرعية لمن عصى الله ورسوله نوعان.

١ ـ أحدهما عقوبة المقدور عليه.

٢ ـ الثانى عقاب الطائفة الممتنعة كالتي لا يُقدر عليها إلا بقتال فاصل هذا هو جهاد الكفار أعداءُ الله ورسوله، «فكل من بلغته دعوة الرسول ﷺ إلى دين الله الذي بُعث به فلم يستجب فإنه يجب قتاله»..

ويقول: «وإذا كان أصل القتال المشروع هو الجهاد ومقصوده هو أن يكون الدين كُلُّه لله وأن تكون كلمة الله هي العليا فمن منع هذا قوتل باتفاق المسلمين» ويقول: «ولهذا أوجبت الشريعة قتال الكفار»..

ويقول مفرقاً بين قتال وقتال ودعوة ودعوة.. «فأما أهل الكتابَ والمجوس فيقاتلون حتى يُسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون

ومن سواهم فقد اختلف الفقهاءُ في أخذ الجزية منهم إلا أن عامتهم لا يأخذونها من العرب، وأيما طائفة ممتنعة منتسبة إلى الإسلام وامتنعت من بعض شرائعه الظاهرة المتواترة فإنه يجب جهادها باتفاق المسلمين حتى يكون الدين لله. . كما قاتل أبو بكر الصديق رضي الله عنه مانعى الزكاة وكان قد توقف في قتالهم بعض الصحابة ثم اتفقوا حتى قال عمر بن الخطاب لأبى بكر رضي الله عنهما: «كيف نقاتل الناس. .؟ وقد قال رسول الله ﷺ أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا قالوها عصموا منى دماءَهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله. .». فقال له أبو بكر إن الزكاة من حقها والله لو منعونى عناقاً. . (الأنثى من ولد المعز ما لم يتم له سنة). . كانوا يؤدونها لرسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها. قال عمر: فما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدرى للقتال فعلمت أنه الحق. .».

ويقول مُستدلاً بمبدأ المباداَة والطلب. . «وقد ثبت عن النبى ﷺ من وجوه أنه أمر بقتال الخوارج. ففى الصحيحين عن على بن أبى طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيخرج قوم في آخر الزمان أحداث الأسنان سفهاءَ الأحلام يقولون من خير قول البرية لايجاوز إيمانهم حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن قتلهم أجراً لمن قتلهم يوم القيامة». .

ويقول مؤكداً قتال الابتداء في الجهاد. . «وهؤلاءِ واجب قتالهم بعد بلوغ دعوة النبى ﷺ. . .»[1] يعنى الذين يتركون الواجبات الظاهرة المستفيضة ويتركون الحج ويمنعون الزكاة ويأتون المحرمات والفواحش. . فإن هؤلاءِ قتالهم ابتدأ حتى يعودوا إلى الحق ودين

(١) السياسة الشرعية من ص ١٣٩ حتى ١٤٩.

الإسلام.. وهذا الكلام من ابن تيمية يبين بحق أن الجهاد في سبيل الله يعني الطلب إذ قد أوجب الله تعالى وأوجب رسوله قتال الكفار. إذ لو كان المقصود من الجهاد الدفاع فقط لما طالب سبحانه وتعالى المؤمنين بنشر دينه وإعلاءِ كلمته وجهاد الناس وطلبهم في أوطانهم حتى يدخلوا في دين الإسلام.

ونحن نورد آيات الجهاد الدالة على طبيعته وسنورد بالذات ماجاءَ في سورة التوبة لأن سورة التوبة من آخر مانزل.. وذلك حتى لايبقى مجال للقول في هذه المسألة بالنسخ أو التقييد أو التخصيص بل يبقى من طالب الحق العودة إليه ولزومه والأخذ به.

يقول تعالى: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.﴾[١].

ويقول سبحانه.. ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين..﴾[٢].

ويقول... ﴿يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير..﴾[٣].

ويقول سبحانه.. ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم..﴾[٤].

---

(١) سورة التوبة آية ٢٩. (٢) سورة التوبة آية ٣٦.

(٣) سورة التوبة آية ٧٣. (٤) سورة التوبة آية ١١١.

ويقول جل شأنه.. ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين..﴾[1].

فهـذه خمس آيـات جاءَ الأمـر فيها عاماً مطلقاً.. فكلها ظاهرها العموم فتكون دليلا على أن الجهاد هو قتال الكفار سواءٌ كان طلباً أو مباداًة أو دفاعاً عن المسلمين أو عن بلاد الإسلام ومقدساته.. والبلاد التي ليست من بلاد الإسلام فهي دار حرب وإن كان فيها قلة مسلمين محكومين.

فدعوى تخصيص هذه الآيات أو تقييدها أو نسخها دون اعتماد على دليل موثوقْ يدفع صاحبه في خطإٍ كبير.. ولا مجال للرأْى هنا، إذ لا يمكن بجانب هذه الآيات الصريحة أن يقال بعد هذا ما يقال...

وإخضـاع الآيـات عادة للرأي المجـرد أو التقليـد هذا كله يؤدى بصاحبه إلى مزالقٍ من مجانبة الصواب خاصة إذا كان الباحث أو ذلك الفقيه يُصدر عن رأى غيره من الآراءَ التي بدأت اليوم تأخذ مجراها في النشر والذيوع بين عامة القراء المختلفين[2].

والذين يحاولون تلمس الأدلة تلمساً ميتاً ليقولوا: أخيراً.. أن الجهاد في الإسلام يعنى الدفاع يقعون في نفس الخطأ الذي يقع به كل من يقول أو يحاول القول بالتخصيص أو النسخ أو التقييد، وكلا هذين المذهبين في بعد عن الحق بل لعل هؤلاء يقعون في خطإٍ كبير إذ أنه من العسـير جداً مع صريح الآيات تلمس الأدلة الضعيفة أو محاولة إخضاعها لما في النفس من رغبات وميل.

والذين قالوا بهذا القول من المتأخرين من الكتاب والمؤرخين وكتاب

(١) سورة التوبة آية ١٢٣

(٢) أرى لطالب العلم عدم تقليد أحد من الائمة إذا وضح له الدليل وبانت له المسألة.

السيرة بصفة خاصة ليسوا بشيء.. فالعقاد ـ وعزام وشيث خطاب ـ وعبد الحميد جودة السحار ـ وأحمد أمين ـ ومحمد حسين هيكل ـ والشرقاوى ـ والحكيم. وأمثالهم قد مالوا إلى غير الوجهة الصحيحة، ولست أعذر منهم إلا: محمود شيث خطاب ـ وأعذره بمعنى أن جهاده عن طريق الكلمة والمقالة يدل ذلك على حسن نيته وأحسبه كذلك وحسبه الله، وأنا لا أقِرُه فيما ذهب إليه في كتابه: «الرسول القائد»: بل أخالفه وأدعوه ما دام حياً يُرزق هو وغيره أن يعود إلى تفهم الآيات والنصوص ثم ليحاول فهم المراد من الجهاد في سبيل الله بتجرد وإن أعسره الفهم أو أشكل عليه المراد فهؤلاءُ هم علماء الإسلام المتخصصين لفهم وإدراك وتفسير المعنى العام والخاص لما يحتاجه الإنسان في علمه وعمله.

التخصيص والتقييد:ـ

ونمضى الآن مقررين معنى التخصيص والتقييد في الأدلة رادين بذلك زعم الزاعمين.. إذ لا عبرة في علم أصول التفسير أن الآيات المتقدمة في النزول تخصص الآيات المتأخرة في النزول ولا تقيد مطلقها.

ولقد بحث العلماءُ ذلك وبينوا ثمرة هذا الأمر وأنه لا يُعقل أن الآيات تفيد تخصيصاً أو تقييداً دون دليل صحيح من الكتاب أو السنة وهذه الدعوى باطلة.. ولعل الذي دفع القائلين القول أنهم يريدون تأويل الآيات كى تطاوعهم حيثما ذهبوا إليه من دعوى الدفاع والنزاع... وهذا باطل كما هو معلوم من الأدلة في الكتاب والسنة.

مناقشة :

وأما ما جاءَ من الآيات :

مثل قوله تعالى: ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها..﴾[1].

(١) سورة الأنفال آية ٦١.

وقوله تعالى: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يُحب المعتدين..﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿أُذن للذين يقاتلون بأَنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير..»[2].

... فأفهم حسب اطلاعي العام أن التخصيص يُراد به النسخ على أَضعف وجه فيكون بمثابته لأن التخصيص صرف الحكم عن عمومه بابطاله ووضع مكانه حكمًا آخر، والتخصيص إذا بمنزلة النسخ، والنسخ يشترط فيه أَن يكون الناسخ متأخراً عن المنسوخ فلا تصلح هذه الآيات أَن تكون مخصصة لآيات التوبة والسبب تقدم النزول.. وتأَخر الآيات في سورة التوبة فلا يتأَتى التخصيص إذاً.

وما قيل في التخصيص يقال في التقييد فلابد أَن يكون النص المقيد متأَخراً عن النص المطلق أَو مصاحباً له حتى يكون مقيداً له أَو حتى يصح حمل المطلق على المقيد كما هو معلوم..

ومن هذا ندرك أَن الآيات السابقة لا تخصص ولا تقيد آيات التوبة، ومن الصعوبة بمكان أَن يقال أنها مخصصة لها أَو مقيدة فإن مثل هذا الأَمر يحتاج إلى دليل يُعتمد عليه. وكتاب الله بين أيدينا فإنه هو الذي ذكر كل ذلك بما لا مزيد عليه.. ولم يذكر العلماءُ السابقون خلاف ما قلناه.. وقد أَجاد الشيخ عبد الرحيم الصالح فتناول هذا الموضوع تناولاً جيداً إستفدت منه شيئاً طيباً خلال دراستى لهذه المسأَلة أَرجو الله له السداد والتوفيق.

ونعود إلى ما نحن فيه من نقاش فنقول: يتبين لنا بوضوح جيد أَنه

---

(١) سورة البقرة آية ١٩٠.

(٢) سورة الحج آية ٣٩.

لا دعوة للقائلين بالتخصيص أو التقييد ومن هنا جاءَت آيات «وإن جنحوا للسلم». وما شاكلها متقدمة في النزول على آيات «التوبة» فلا يقال أن هذه الآيات خصصت أو قيدت. لأن مثل هذا الزعم يحتاج إلى ناهض ينهضه.. ولم يقع فيما بين أيدينا من مراجع من ذهب إلى غير الحق في مسألة «الطلب والدفاع».

ومن هذا الذي ذكرناه يسقط الإستدال بأن المراد من الجهاد في سبيل الله يعنى الدفاع لعموم الآيات الدالة على ذلك..

وعلى هذا فيبقى العام على عمومه لعدم وجود مخصص له، ويبقى المطلق على إطلاقه لعدم وجود نصٍ مقيد يمكن أن يقيد به أو يحمل عليه.

ومما سلف من قول يتضح: أن الجهاد: هو قتال الكفار مُطلقاً والنصوص التي بينها تعارضٍ ويتّحِدُ موضوعها وتختلف ظروفها وأحوالها لا تعارض فيها فلا ينسخ أحدها الآخر.

التعارض:

أما الادعاءُ بأن آيات التوبة نسخت الآيات الأُخرى التي قبلها فإنه إدعاءٌ غير صحيح، فلا يوجد أي ناسخ فيها.. وهذا يبين أنه ليس مجرد ظهور التعارض بين النصين كافياً لادعاءِ النسخ. بل لابد أن تقوم الحجة الشرعية على أن هذا النص ناسخ لذلك.. وإلا فلا يُعتبر ناسخاً، فلابد من قرينة تدل على النسخ.. وفي ظهور التعارض بين الآيات حسب الظاهر والمفهوم الخاطى فإن القرآن يصدق بعضه بعضاً ولا ينقضه أو يعارضه ثم إن هناك ما يمكن عمله إذا كان ثمة عدم توافق بين الآيات.. وهو الجمع بينها فيبطل القول بالنسخ إذا أمكن ذلك إذ من الجور على القرآن أن يعمل فيه بالرأى المجرد دون نص

يرجع إليه[1]. فالعاقل من العلماء هو الذي يتجرد في علمه ويقول الحق ويعمل به ولو كان هذا يُعارض ما ذهب إليه من حكم أخذ به أو قال.. والوقوف عند الحق والرجوع إليه خصلة محمودة يُحمد عليها العالم بل إنها ترفع درجته عند الله، ومن ثم يعرف الناس عنه ذلك فيعودون إليه لأنه معروف بالأمانة والأخذ بالحق. ويعلم الله لقد قضيت كثيراً من الوقت في مُطالعة كتب التفسير وكتب المعارضة مثل كتاب الإمام أحمد بن حنبل وغيره في الرد على الذين يقولون بتناقض الآيات في القرآن فوجدت أن الخطأ راجع إلى فهم الإنسان وعقليته دع عنك الزنادقة الذين يتعمدون القول بالتناقض ويرجحونه ويميلون إليه ويصرون على وجوده. ولعله يتبين مما سلف أن لا تعارض بين الآيات الواردة في القتال ومجاهدة المشركين بل كل منها يدل على شيء يُراد به معنى معلوم ويمكن من ثم الجمع بينها إن قيل بضد الاتفاق والتعارض.

النسخ:

وهنا يقال إن دعوى النسخ في الآيات الواردة غير مقبول وذلك أن هذه الآيات يختلف بعضها عن بعض ودعوى القول بالنسخ والإصرار عليه ليس من خلق مريدى الحق خاصة العلماءَ فيحسن التثبت واتباع الحق ولو كان هذا يبطل ما ذهب إليه ذلك العالم.. فالآية: ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾. لا يقال عنها إنها ناسخة لاية السيف.. وهي قوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾. لأن الايتين تختلف حالتها فلا يمكن أن يقال بالنسخ إذ لا مجال للقول به هنا ودعواه مردوده.

(١) فالعالم الشرعي يجب في حقه أن يبحث الأقوال من مصادرها وإذا لم يكن ثمة قول عليه دليل فلا يقلد احداً بل يبحث بنفسه ويجتهد إذا رأى نفسه أهلا لذلك، والاجتهاد ليس وقفا على أحد وهذا هو الحق.

١ ـ فالآية الأولى تعنى حالة الصلح.
٢ ـ والآية الثانية تعنى حالة القتال.

وقد قال الشيخ عبد الرحيم الصالح في مقال له جيد: أن القتال والصلح حالتان باقيتان كل منهما لم ينسخ. وهذا هو المرجع. والذي وجدته من خلال المقارنة بين حالتي الآيتين.. وثمة شيء آخر يدل على عدم النسخ في الآيتين وذلك أن الصلح حالة مستقلة ضرورية تدعو الحاجة إليها.. وكذلك حالة التقال يحتاج إليها المسلمون عندما يريدون تحقيق أمر الله.

وأما الآية وهي قوله تعالى: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يُحب المعتدين﴾.

فالآية تقول: «الذين يقاتلونكم». فيخرج من ذلك من لم يُقاتل من النساءِ والذرية ثم قالت: «ولا تعتدوا» فهذا يعنى أن قتل الذرية من الاعتداء.

والقول بأنها تعنى مقاتلة المقاتلين دون من لم يقاتل غير مقبول نقلاً وعقلاً.. وذلك أن جهاد الكفار والمشركين واجب إبتداءً حتى يسلموا.

والآية التي معنا لم تنسخ بقوله تعالى: ﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾: لأن آية الأمر بقتال المشركين موضوعها الأمر بالقتال فهي بالأمر بالجهاد.. أما هذه الآية فإنها أمر بحصر القتال بقتال من يقاتلون وعدم مجاوزتهم إلى من لا يقاتل.

وأما الآية: ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾ فهذه الآية أمر بالقتال مطلقاً.. فقوله.. «بأنهم ظلموا». ليس علة للقتال بل هو وصف واقع وذلك أن كفار المشركين كانوا يؤذون

الصحابة أذى شديداً ويبين إطلاقها سبب النزول على ما ذُكر في التفسير والتاريخ وكتب الأسباب.

وعلى العموم فالذين تألوا هذه النصوص أو قالوا إنها تفيد التخصيص أو التقييد أو النسخ يريدون الخلوص إلى القول بدفاعية الجهاد في الإسلام. . إذ الابتداءُ أو الطلب أو الهجوم يعنى التعدى على الآخرين من الكفار والمشركين. . والإسلام دين تسامح وعدم إكراه. . ولقد جاز هذا القول عن طريق مباشر وغير مباشر لبعض المتأخرين من الباحثين فنهجوا هذا المنهج ظناً منهم أن هذا المسلك هو عين الصواب المطلوب وهذه بعض أقوال العلماء تؤيد ما ذهبنا إليه.

يقول الإمام ابن تيمية: «العقوبات التي جاءَت بها الشريعة لمن عصى الله ورسوله نوعان:

١ ـ أحدهما: عقوبة المقدور عليه.
٢ ـ ثانيهما : عقاب الطائفة الممتنعة، كالتي لا يقدر عليها إلا بقتال فاصل، هذا هو جهاد الكفار أعداءُ الله ورسوله».

«وإذا كان أصل القتال المشروع هو الجهاد، ومقصوده هو أن يكون الدين لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا فمن منع هذا قوتل باتفاق المسلمين».

«ولهذا أوجب قتال المشركين»[1].

قال الشوكاني في معنى قوله تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ فيه: الأمر بمقاتله المشركين إلى غاية هي ألا تكون فتنة ويكون الدين لله، وهو الدخول في الإسلام، والخروج عن سائر الأديان المخالفة له

(١) السياسة الشرعية ص ١٣٩ ـ ١٤٥.

فمن دخل الإسلام وأقلع عن الشرك لم يحل قتاله»[1].

ويقول سيد قطب كلاماً عاماً يعنى في مفهومه الابتداءَ: «إن هذا الدين إعلان عام لتحرير الإنسان في الأرض من العبودية للعباد ومن العبودية لهواه أيضا وهي من العبودية للعباد وذلك بإعلان ألوهية الله وحده سبحانه وربوبيته للعاملين..»[2].

وهناك أقوالٌ لكثير من العلماءِ القائلين بالابتداءِ يكفى عنها ما ذكرنا والذين ذهبوا إلى خلاف ما ذهبنا إليه وقرروا معنى الجهاد مخالفين بذلك صريح الآيات ومتعمدين الخلاف ليس معهم من الأدلة ما يقرر ما ذهبوا إليه.

وهم قد استدلوا بآيات تفيد حقيقة ما ادعوه بيد أن الأمر بخلاف ذلك فقد استدلوا بقوله تعالى:

﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغى﴾.

وقوله تعالى: ﴿ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾.

وقوله تعالى: ﴿أُذن للذين يُقاتلون بأنهم ظلموا﴾.

وقوله تعالى: ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾.

والآيات التي استدلوا بها كثيرة واردة في القرآن.. وهي في حقيقة الأمر خالية من الدليل.. وإشارة إلى آيتين منها ندرك خطأ التفسير والمذهب.

قال ابن كثير في الآية الأولى: «لا إكراه في الدين».. وقد ذهب

---

(١) فتح القدير جـ ١ ص ١٩١.

(٢) ظلال القرآن جـ ٩ ص ١٦٩.

طائفة كثيرة من العلماءِ أَن هذه الآية محمولة على أَهل الكتاب ومن دخل دينهم قبل النسخ والتبديل إذا بذلوا الجزية[1].

وقـال آخرون: «هي منسوخة بآية السيف.. وأَنه يجب أَن يدعو جميع الأُمم إلى الدخول في الدين الحنيف دين الإِسلام فإن أَبى ذلك أَحد منهم ولم ينقد له ولم يبذل الجزية قوتل حتى يقتل»[2].

وقال الشوكانى أَيضاً في تفسير هذه الآية: «لا إكراه في الدين» إنها على أَقوال: «الأول: أَنها منسوخة لأَن رسول الله ﷺ قد أَكره العرب على دين الإِسلام وقاتلهم ولم يرض منهم إلا بالإِسلام، والناسخ لها قوله تعالى: ﴿يا أَيها النبى جاهد الكفار والمنافقين﴾»[3].

أَما الآية الثانية: ﴿ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين». فجوابها هيناً إذ قد بينا فيما سبق من هذا البحث شيئاً من ذلك ولا بأَس في ذكر أمر جديد من الجواب.

أَولاً: تعنى الآية عدم الاعتداءَ على من لم يقاتل من النساءِ والذرية.

ثانيا: قتال الكفار والمشركين واجب وذلك بعد عرض الدعوة عليهم.

ثالثـاً: الجهـاد في الإِسـلام يعنى الطلب والدفاع حسب الحالات المقتضية للطلب والدفاع.

رابعاً: إن ابتداءَ الجهاد ضرورة تقتضيها مصلحة الإِنسان وإِن لم يدرك الإِنسان هذه الضرورة.

خامساً: من المعلوم أَن الأَطباءَ المتخصصين لو قرروا أَن في الإِنسان

---

(١) ابن كثير جـ ١ ص ٣٢٣

(٢) المصدر السابق.

(٣) فتح القدير جـ ١ ص ٢٧٤.

عضواً خطيراً يشكل ضرراً بالغاً على بقية أجزاءِ الجسم أنه يُبتر. . فكذلك يجب قتال الكفار ابتداءً لأنهم يقودون أنفسهم من حيث يعلمون أو لا يعلمون إلى عاقبة وخيمة في الدارين.

ويتضح أكثر فأكثر عندما يعود القارىء إلى واقع تاريخ الإسلام وما فيه من غزوات وسرايا وطلائع ورسل. . وهذا كله كفيل بأن يعطى المسلم حقيقة الجهاد وطبيعته في الإسلام.

ونمضى مع الأدلة لبيان الحقيقة المرجو الأخذ بها والتزامها على كل حال، نمضى مع الأدلة من السنة لنُقيم الحجة من قبل ومن بعد على مريد الحق وطالبه والسائل عنه. . ومن الأدلة الظاهرة التي لا تحتاج إلى إخراج وجه الدلالة منها غزوات الرسول ﷺ وأفعاله وأعماله الكثيرة وكل هذا يدل على الابتداءِ والطلب ما في ذلك شك. .

إن جهاد الصحابة ومن بعدهم في القرون المفضلة يدل دلالة واضحة أن قتالهم كان لإعلاءِ كلمة الله في الأرض والسماءِ ولا يمكن ذلك ولا يعقل أبداً إلا إذا كان جهادهم طلباً للعدو من أجل إسلامه ودخوله في دين الله وعمل الصحابة ومن بعدهم يعنى أن الجهاد كما يكون دفاعيا يكون طلباً.

ومن ثم فلا يمكن بتأويل الغزوات والفتوح الإسلامية بأنها استعمارية كما ذهب إلى ذلك: «فيليب حتى وجرجى زيدان» وغيرهما من أعداءِ الإسلام. قال هؤلاءِ هذا القول لحاجة في نفوسهم يريدون من ورائها تشويه جهاد المسلمين وهو يعنى من طريق غير مباشر أن الجهاد دفاع لا غير وإذا خرج من كونه دفاعاً فإنما يعنى الاستعمار ولا مزيد ونأتى إلى أقوال الرسول ﷺ:

أخرج الشيخان من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال:

قال رسول الله ﷺ: «أُمرت أَن أقاتل الناس حتى يشهدوا أَن لا إِله إلا الله، وأَن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة. ويؤتوا الزكاة، فإِذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءَهم إِلا بحق الإِسلام وحسابهم على الله تعالى».

وأَخرج مسلم والترمذى وأَبو داود. عن سليمان بن بريدة. رضي الله عنهما أَو سرية أَوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: اغزوا بسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا. ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً وإِذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إِلى ثلاث خصال أَو خلال فأَيهن أَجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، ثم ادعهم إِلى الإِسلام فإِن أَجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إِلى التحول عن دارهم إِلى دار المهاجرين، وأخبرهم إِن هم فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، فإِن أَبوا أَن يتحولوا منها فأَخبرهم أَنهم يكونون كأَعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إِلا أَن يجاهدوا مع المسلمين فإِن هم أَبوا فسلهم الجزية، فإِن هم أَجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم فإِن هم أَبوا فساتعن بالله عليهم وقاتلهم».

وروى أَيضا مسلم عن عطاءَ الأَشجعى رضي الله عنه قال: إِن النبى ﷺ قال: «من وحد الله وكفر بما يُعبد من دون الله حرم مالُهُ ودمُهُ وحسابُه على الله عز وجل» فهذه أَدلة ثلاثة من السنة دلت بها لا مجال للشك فيه.. أَن القتال مراد به الطلب والابتداءُ والدفاع وكل حسب ما تقتضيه الحال.

فإِنه قال: أَمرت أَن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إِله إلا الله وأَن محمداً رسول الله.

وقال في الثانى: اغزوا بسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله ثم أمر قائد الجيش أن يدعوهم إلى ثلاث خصال وقال في الثالث: من وحد الله. إلى قوله: وحسابهم على الله عز وجل.

فهذه الأحاديث تدل على ما دلت عليه الآيات السابقة في إعطاءِ معنى الجهاد في الإسلام.

ومن خطأ التفسير الظاهر للمعنى المراد القول بشيء غير ما تدل عليه الأدلة من الآيات والأحاديث.. وليس كصراحة الآيات والأحاديث في تبيين طبيعة الجهاد.. ولا يمكن مع دلالة الدليل خلاف ما يدل عليه. فإن ذلك يذهب بالدليل إلى ما لا معنى له مما لم ينزل به الله من سلطان. ومن التعدى غير الجائز تأويلها أو تفسيرها على وجه لا تحتملها بوجه من الوجوه.

وثمة دليل جيد وإن كان مكرراً يكفى معناه في معرفة نوعية الجهاد وهو رد مباشر لا يمكن رده أو تأويله في أن القتال كان ابتداءً ودفاعاً ووقاية وحماية وهجوماً فهذه الغزوات الكثيرة التى ظهر لها كتاب مختصون: ماذا كان يراد بها ومنها..؟ ثم ما أسبابها..؟ ثم لماذا تنوعت وما القصد من تنوعها..؟ وكيف انقطعت ولماذا..؟ كل هذا يعطينا شيئاً عاماً وخاصاً لإدراك معنى الجهاد في الإسلام.

ويكفي عن كل قول ودليل مجرد أن نذكر غزوة أو بداية غزوة. وذلك بأن الرسول ﷺ حين خرج لأخذ القافلة التى كانت تحمل تجارة لقريش كان خروجه هذا للقتال ولم يكن في هذا نوع دفاع ثم كان بعد ذلك أن وقعت غزوة بدر بين المسلمين والمشركين وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم﴾.[1]

---

(١) سورة الأنفال آية ٧.

والطائفتان الوارد ذكرهما هنا هما العير والنفير وهذا فيه دليل قوى على أن الخروج كان للقتال وهذا يعنى الطلب.

ولا ريب أن هذا أبلغ الأدلة على تعدد نوعية الحروب في الإسلام وأنها لا تقتصر على الدفاع.

وحروب الرسول ﷺ في خيبر وهوازن وحصاره للطائف وغزوة تبوك وكذلك الغزوات الأخرى حيث كان الرسول ﷺ هو البادىء بالقتال لنشر هذا الدين بين الناس وتحكيم الكتاب بينهم. ولم تكن الغزوات منه لأنهم قاتلوه أو اعتدوا عليه فإنهم لم يسبق لهم ذلك إلا في نادر الأحوال التى قد تكون مجهولة لدى عامة المؤرخين.

وأعمال الرسول ﷺ وإن كان فيها حرب دفاعية كموقعة أحد، وموقعة الأحزاب فإن أكثرها كان مباداًة وليست دفاعاً فحسب.. وحتى بعثات الرسول ﷺ أصلاً ما معناها إن لم يكن معناها قتال المشركين وطلبهم في ديارهم حتى يسلموا.

ولم يأت الرسول ﷺ للدعوة وكفى وترك الحرية للآخرين في اختيار المعبودات من دون الله ولو كان الأمر كذلك لكانت طبيعة الدعوة أقرب ما تكون إلى الضعف والمسالمة المستديمة ثم لغُلبت على أمرها ومن ثم لكانت آيات الأمر بالجهاد من عبث الكلام الذي ينزه عنه كتاب الله سبحانه وتعالى..

ومن هذا الدليل يكون من الصعوبة بمكان أن يقال بدفاعية القتال فقط أو يقال بنشر الدعوة دون قتال للمتبعين فإن هذا كله مرفوض إذا أدركنا حاجة الإنسان إلى الإسلام وإن لم يكن في الإنسان معرفة لذلك، والذين قالوا بهذا زاعمين المسالمة وعدم الإكراه يقعون في شر غير مرتقب هذا من جهة القول بسلامة نية هؤلاءِ.. أما غيرهم فأجزم

وهذا رأى انهم يرتكبون شططاً من القول ويقعون في طريق منهى عنه يجب أن يكونوا على بصيرة وسلامة نية وحسن قصد لئلا يكونوا في عارٍ أبد الدهر.

إجماع الصحابة:

الـذين قرأوا التـاريخ والأخبار وفتوح البلدان يجدوا أن الصحابة رضـي الله تعالى عنهم قد تم على أيديهم فتح كثير من البلاد المعمورة كفتح فارس والعراق والشام ومصر وشمال أفريقيا...

وهذا العمل الحركى المشاهد المحسوس، إجماع من الصحابة على أن الجهاد هو مبادأة العدو بالقتال.. وترى أن هذه الفتوح مبادأة بالقتال لا تحتاج إلى دليل.

إن الـذين يحاولـون تغيـير واقع الحال وتبديل الحق بعد مشاهدته بالعيـان يخطئـون ولا يعلمون أنهم يخطئون أو يعلمون. بيد أنه هنا يصعب جداً إنكار هذا الظاهر. فما معنى هجر الأوطان والأولاد وطلب الكفار والمشركين في ديارهم النائية ما معنى هذا إن لم يكن معناه الجهاد بأوسع معانيه.

إن الذهاب لنشر هذا الدين والخروج من أجل ذلك لا يحصر الجهاد بالـدفـاع فقط.. ومـا كتبـه محمـود شيت خطاب عن قادة الفتـح الإسلامى.. كقادة فتح بلاد مصر والشام.. وقادة فتح بلاد فارس.. وقادة فتح بلاد المغرب العربى يعطى أصدق صورة وأوفى الأدلة العملية على أن الجهاد في الإسلام يعنى الطلب. وأن طبيعة الجهاد في الإسلام هي المبادأة بالقتال إذ ما معنى الدفاع هنا واللغة العربية قد حددت له مفهوماً لا يتعداه من حيث العموم.

إننـا إذا قلنا بالدفاع وقصر معنى الجهاد على هذا فما الفارق بين الإنسان وسائر الحيوان الذى همه أن يدافع لا غير، والإسلام الذي ارتضاه الله للعباد يجب أن يكون فوق الأديان فضلاً عن الحيوان.

إن الذي يكتب حتى هذا الحين ويكتب عن تاريخ الإسلام وغزواته وسرياه وفتوحه فيما بعد يعطى الأدلة تلو الأدلة على التوسع بهذا المفهوم الذي حدده من لم يفهم النصوص ومأخذ الأدلة منها..

إن جعل الإسلام في جهاده مدافعاً يوقع صاحبه في خطأ أقله أنه قلد الخصوم وقال ما يدعون إليه ويكتبون عنه ويكفى عن إيراد أقوال بعض الصحابة رضـي الله عنهم ما ذكرناه لهم من أعمال كثيرة شاهدة صباح مساءَ على ما ذهبنا إليه.

مع المعاصرين:

سبق القول في هذا البحث رداً على القائلين بأن الجهاد يعنى الدفاع وقـد تتبعنـا خطوات هؤلاءِ متنقلين معهم حيث قالوا بالأمور الثلاثة التخصيص.. أو التقييـد أو النسخ.. ولقد نقلنا الأدلة من الكتاب والسنة محاولين في هذا إثبات الحق براءَة للذمة وإثباتاً للحجة ويكاد يكون هؤلاءِ من الذين يحاولون ولوج باب الصواب في شريعة الإسلام من أجل ذلك كنا في رفق معهم في الأخذ والرد ولا يعنى هذا الرد شخصاً أو أشخاصاً بل يعنى كل من قال بهذا القول.

ولا جرم نكون قد بذلنا جهدا في هذا الباب يلمسه من أدرك قيمة الاختصاص في البحوث.

ويـأتى دور المعاصرين من الباحثين في التاريخ والأدب والحروب بصفة خاصة.. أولئك الذين خبثت طويتهم حيث مالوا إلى ما مال إليه بعض المستشرقين أمثال بروكلمان وجب وماسينون وغيرهم، ونحن هُنا

نعضد قولنا ونقويه بنقولٍ جيدة من كتاب «الجهاد في سبيل الله». . للمودودى وغيره للرد على الجميع القائلين خطأً والقائلين بخبث بدفاعية الجهاد ونعلم علمًا لا يخالجه شك أننا ننفخ في رماد ولكن كما قلنا آنفاً براءَة للذمة ليس إلا. . ونرجو مع هذا انقياد أهل الحق إلى الصواب والقول به ونشره فقد أخذ الله العهد والميثاق على العلماءِ ليبينن الحق ولا يكتمونه. .

يقول سيد قطب كلاماً معناه هو ما ذهبنا إليه من القول بعموم معنى الجهاد والرد على المخالفين الذين يرون الخلاف: «أما محاولة إيجاد مبررات دفاعية للجهاد الإسلامى بالمعنى الضيق لمفهوم العصر للحرب الدفاعية، أو محاولة البحث عن أسانيد لإثبات أن وقائع الجهاد الإسلامي كانت لمجرد صد العدوان من القوى المجاورة على الوطن الإسلامي وهو في عرف بعضهم جزيرة العرب فهى محاولة تنم عن قلة إدراك لطبيعة هذا الدين»[1].

ويقول في الرد عليهم. . «يجب ألا تخدعنا أو تفزعنا حملات المستشرقين على مبدأ الجهاد ولا يثقل على عاتقنا ضغط الواقع وثقله في ميزان القوى العالمية. فنروح نبحث للجهاد الإسلامى عن مبررات أدبية خارجة عن طبيعة هذا الدين».[2]

ويقول في إنتقاد ساخر للأتباع المعجبين «إن الباحثين الإسلاميين المعاصرين المهزومين تحت ضغط الواقع الحاضر وتحت الهجوم الاستشراقى الماكر، يتحرجون من تقرر تلك الحقيقة ـ لأن المستشرقين صوروا الإسلام حركة قهر بالسيف للإكراه على العقيدة، والمستشرقون الخبثاء، يعرفون جيداً أن هذه ليست هى ـ الحقيقة ـ ولكنهم يشوهون

(١) الجهاد في سبيل الله ص ١٢٣.

(٢) المصدر السابق ص ١٢٨.

بواعث الجهاد الإسلامى بهذه الطريقة ومن ثم يقوم المنافحون المهزومون عن سمعته بنفى هذا الاتهام فليجأون إلى تلمس المبررات الدفاعية ويفضلون طبيعة الإسلام ووظيفته وحقه»[1].

وهذه النقولات من هذه الرسالة صورة حية لما يكمن في النفس الإنسانية. . ولما يكمن في نفوس نفر من المسلمين الذين يحاولون الجهاد عن الإسلام فيقعون في أخطر مما وقع فيه المستشرقون أنفسهم وهذا فيه دلالة على البلاهة الذهنية العمياءَ وعدم الشعور والإدراك، بل عدم الشعور بالمسئولية وهذه طامة كبرى. وهذا من أجل أنهم تلمسوا الدفاع عن الإسلام دون رجوع إلى نصوص وأدلة من مراجع موثوق بها.

والحقيقة أن جملة كبيرة من حملة القلم في هذا العصر قد أعجبوا بخطوات الأعداءِ في البحوث والدراسات والمحاضرات الأمر الذي جعل منهم تلاميذاً لهم. . حتى أنك ترى بعضهم وتثق في الغالب في كتبه في الأدب والتاريخ والعلم حتى إذا ما كتب عن شيء في «الفقه الإسلامي» أو «العقيدة» فإذا هو يقع في تبلبل فكرى محزن تظن للوهلة الأولى أنه جديد على الإسلام في فهم المراد من النصوص.

إن الذي نراه اليوم ونراه دائمًا وباستمرار من حالة هذه الجهالة وحالة هذا النوم الطويل عن العلم والتعلم والانصراف عن كتب السلف الأخيار هو في حقيقة الأمر بلية المسلمين.

إن الباحثين الإسلاميين الذين أذعنوا لظروف ومقتضيات العصر الحديث وتبعوا الخصوم عن طريق الدراسة والتلقى يجعلون من الإسلام مشوهاً لدى الآخرين. ولذا نرى كثيراً من الدراسين كثيراً ما يعرفون قادة الغرب ومفكريه وعلمائه. وإذا عاد الأمر إلى الإسلام وأحكامه وعلمائه يكون هؤلاءِ كفاقد الشيء. . وفاقد الشيء لا يعطيه.

---

(١) الجهاد في سبيل الله ص ١٣٤.

النتيجة :

رأينا في جملة هذا البحث شيئاً من سمات الجهاد في سبيل الله ورأينا أشياءَ كثيرة مما يتطلبه هذا الجهاد.

رأينا كيف أنه ضرورة تقتضيها مصلحة الإنسانية عموماً ورأينا أن الجهاد في الإسلام كان على مراحل وأنه في المرحلة الأخيرة كان دائماً لقتال جميع الكفار والمشركين ليكون الدين كله لله ويكون الناس عباداً لله. . .

يقول أحمد حسن: «الذي يراجع أحداث السيرة النبوية ووقائعها ليرى خلالها الواقع التاريخي للمنهج الحركى الإسلامى، ويراجع كذلك طبيعة الواقع التاريخى للمنهج الحركى الإسلامى، ويراجع كذلك طبيعة هذا المنهج في ذاته ومراحله وأهدافه. . يرى بوضوح أن هذه الخطوة الحاسمة في العلاقات بين المعسكر الإسلامى في الجزيرة العربية وسائر معسكرات المشركين وكذلك بينه وبين أهل الكتاب التى تقررت في هذه السورة، كان قد جاءَ موعدها، وتمهدت لها الأرض وتهيأت لها الأحوال، وأصبحت هى الخطوة الطبيعية في أوانها المحتوم كانت التجربة تلو التجربة»[1].

ورأينا بعد ذلك طبيعة الجهاد وأهدافه ومراميه والحكمة منه والغاية منه في الحياة وبعد الممات.

ورأينا لزوم الدعوة والجهاد في كل عصر جاهلى بعيد عن الله ورأينا مضرة القعود عن الجهاد وتركه وتبرير ذلك القعود. .

هذه إذاً صورة ما قلناه ظاهراً أو جاءَ ضمنا لم نذكره. . . وأخيراً

---

(١) فقه الدعوة.

في هذا الحين العصيب يتناول خصوم الإسلام هذا الدين بجملته لم يفرقوا بين أصل وفرع وفريضة ونافلة بل انطلقوا لا يلوون على شيء هادين بأفكارهم ونظراياتهم كل ما يقع في طريقهم من أمور الإسلام الحنيف. . ومن أخطر ما تناوله هؤلاءِ الأعداءُ اليوم فريضة الجهاد التى فقدت فقدانا لا يجب أن يكون.

ولعل الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود في كتابه: «الملحق بكتاب الجهاد المشروع في الإسلام». قد جزم كل الجزم وقطع كل القطع أن الجهاد في الإسلام ليس طلباً وما يكون له ذلك وقد صدر كتابه في مئة وعشرين صفحة كلها انصبت على رد ما ورد في كتابنا هذا خاصة «طبيعة الجهاد في الإسلام» ولم اطلع خلال فترة الطبعة الثالثة حتى هذه الطبعة على كلام ككلام الشيخ: إبن محمود. . ولا أظننى أطلع ولا غيرى كذلك فقد جاء كتابه بما يلى:

أولاً: النقد الشخصي حيث زعم عفا الله عنا وعنه أنني قليل البضاعة وقليل تعاهد القرآن ثم جاء أخيراً ليقول أن الكتاب ليس بشيء.

ثانياً: تناول الكتاب من وجهة نظر شخصية فقال لو علم النصارى. . هكذا. . به لجعلوه في مدارسهم وكنائسهم ومن ثم بدأ يناقش الفصل الخاص بطبيعة الجهاد في الإسلام دون سواه ولم ير طلبية الجهاد في الإسلام كما لم ير المباداه في حال الكفر بل قال يتركون. . الخ. . كما لم ير ما ذهب إليه كثير من اهل التفسير حول النسخ والتقييد والتخصيص.

ثالثاً: مع كونه تصلب في نقده ذاك فإنه بدأ يتراجع لكن «دون تنبه منه إلى هذا». فقد ذكر الدفاع وذكر الطلب بشيء من التطويل يجعلنا ندرك أنه لم يقرأ الكتاب ولعل دافعه إلى النقد ظنه أنه جاء بما لم يكن بالحسبان حيث جزم بما جزم به. والحق أن الشيخ انفعل كثيراً فجاء

كتابه سرداً وعظياً دون أن يكون للبحث الشرعي أي نصيب في كتابه وبدأ كما لو كان ناصحاً للأمة أن الجهاد ليس إلا للدفاع ومن يقل بغير هذا فإنه قرر ما يقوله الأعداء خاصة النصارى ومن جرى مجراهم ولا أظن الشيخ قد قرأ الكتاب كله بروح متجردة ثم حلله ورسم نقاط الخلل وبدأ يكتب عنه لكنه إطلع فقط على الفصل الخاص بطلبية الجهاد وبدأ ينتقد.

لم أقل أن الجهاد ابتداء أو أنه طلب كما لم أقل أنه دفاع بل الذي دونته في المقدمة وسواها أن الجهاد في الإسلام يعنى الدفاع عن الإسلام في حال ضعف المسلمين وعدم قدرتهم على غير ذلك وأن الجهاد يعنى الطلب والابتداء في حال قوة المسلمين وكثرتهم وقيام أمرهم والذي يطالع الكتاب يجد هذا مدوناً لا إشكال فيه، ولست بمهتم الشيخ بعلمه أو فهمه لكنه كما يظهر لي منفعل ظاناً أننى كتبت الكتاب رداً عليه على كتابه «الجهاد المشروع في الإسلام» وهذه علة الخطأ أو قل سبب الخطأ الذي وقع فيه الشيخ.

ولست هنا أجعله مع أولئك الذين يرون الرأي.. لحاجة في نفسه لكنى أرى أنه مجتهد مع أن الأولى هنا التثبت والقراءة الجادة المتأنية لأن الكتاب عقل صاحبه أو هو دليل عقله ولا أرى أن كتاب ابن محمود يحتاج إلى كثير قول حوله فلأطلاع عليه يدل أنه كتاب اتسم بالعجلة جداً وسلوك سبيل الوعظ على علاته فعفا الله عنا وعنه، ولا ريب أن القطع في أمر من الأمور يحتاج إلى التثبت والتأنى والاستخارة في مثل مسائل الأحكام والعبادات كما يحتاج القطع إلى اليقين الجازم بأن المسألة مقطوع بها دون نقاش لكن العيب في مجالات الدرس والنظر هو الأنتصار من غير مستند إن اعداء الإسلام ما برحوا أبداً يكيلون الدس والتنقيص في هذه الأمة بين علمائها ومثقفيها وكتابها حتى تظهر الفرقة وحتى يظهر الجدل وحتى يشتغل المسلمون بهذا دون نظر أمرهم

العظيم وهو: انتشار هذا الدين وتحقيق معنى العبودية في الحب والكره والولاء والصدق والكذب، والجهاد كما تقدم في فصول هذا الكتاب هو ذروة سنام الإسلام في هذه الحياة وهذا يعني أنه عظيم الشأن في هذه الأمة ومثل هذا في دوره «فقه الجهاد وحقيقته» والمراد منه وهدف الخصوم في هذا الحين وكل حين ونحن متى ما أدركنا حقيقة «فقه الجهاد» بالرجوع إلى النص الصحيح من السنة وبالرجوع إلى الآيات البينات في كتاب الله أدركنا أننا بعد لم نقم بلازم الواجب تجاه هذه العبادة العظيمة وهذا من مراد القوم الذين يكيدون لهذا الدين بوسائل شتى، ولا يجب أن يؤاخذ بعضنا بعضاً تصل المؤاخذة فيه إلى الذم والقدح فلولا مكانه الشيخ.. عندى.. لما ذكرته هنا بشروى نقير لكنى أهتبلتها مناسبة للالتقاء والتصحيح والبيان ودعوة كريمة إلى الفهم فيما يتلجلج على الكثير[1].

(١) نشاط النصارى ودعاة الوثنية واضح منذ الحرب العالمية الأولى والعلمانيون لهم دور كبير في هذا جداً ومن باب زيادة نظر دور الخصوم في مجالات عديدة يراجع كتاب. التبشير والاستعمار، وما يقال عن الاسلام. وحصوننا مهددة من داخلها في أوكار الهدامين.


العهود

قال ابن قدامة في المعنى: «ومعنى الهدنة أن يعقد لأهل الحرب عقداً على ترك القتال مدة معلومة بعوض وبغير عوض وتسمى مهادنة وموادعة ومعاهدة»[1]. وهذه التسمية أراها جامعة ولذلك كان اختيارها من المغني دون غيره أصوب.

والمعاهدة جائزة بدليل قوله تعالى: ﴿برآءَة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾[2].

ولقوله تعالى: ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾[3]. والمعاهدة لها دور كبير في فض المنازعات وحل المشكلات، ولتسوية العلاقات بين الجانبين للوصول إلى سلمٍ دائم مستمر لا على حساب الدين والعقيدة.

ولقد أمر الله سبحانه وتعالى بالوفاءِ بالعهود وشدد على من خان أو نقض الميثاق.

فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود..﴾[4].

وقال تعالى: ﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً..﴾[5].

وقد جعله رسول الله ﷺ من الإيمان وهذا يدل على الوفاءِ به ولزومه ما لم يختل شرط من شروطه فقال عليه الصلاة والسلام «إن حسن العهد من الإيمان»[6]. ولم يشدد الله ورسوله به إلا لحكمة عظيمة ظهرت

---

(١) المعنى جـ ٨ ص ٤٥٩.

(٢) سورة التوبة آية ١.

(٣) سورة الأنفال آية ٦١.

(٤) سورة المائدة آية ١.

(٥) سورة الإسراء آية ٣٤.

(٦) قال الحاكم صحيح، وأقره الإمام الذهبي. قلت هو صحيح.

للصحابة رضي الله عنهم ولمسوا نفع الوفاءَ بالعهد ولم يكن العهد ليعقد إرتجالاً بل لابد له من شروط تكون محل رضا وقبول وأى خلل يحدث فيها فإن ذلك يعنى النقض وعدم الوفاء ولم يحدث قط أن نقض الرسول ﷺ عهداً ولا أصحابه. وشروط العهود هى.

أولاً: ألا تخالف حكمًا من الأحكام الشرعية.

ثانياً: أن تكون العهود عن رضا واختيار لا عن طريق القوة والجبر فإن الإكراه على عقده يقود إلى شر العواقب ويعنى من ثم سلب الإرادة.

ثالثاً: أن يكون العهد المعقود بين الطرفين بيناً واضحاً على أمور مفهومة معلومة حتى لا يُتلاعب في ذلك.

رابعاً: أن يكون العهد صادقاً مقبولا يعلمه أهل الرأى.

خامساً: أن لا يكون على حساب الدين.

ومتى ما تم عقد العهد بين المسلمين وغيرهم فإنه لا يجوز نقضه أو التلاعب فيه أو إيجاد الحيل لنقضه.. ومتى حدث مثل ذلك فإنه يعنى اختلال العقد ومن ثم طرحه وإبعاده وما حرص الإسلام على العهود إلا من أجل الوصول إلى حقيقة سلمية بين الاطراف.. ولكن إذا كان أي نذير خطر على الإسلام من جميع جوانبه أو بعضها فإن ذلك يعنى عدم التردد في القضاء على مثل هذه الأمور لخيانة القوم المعاهدين.

ولعل من حكمة إبرام العهود هو تفرغ المسلمين للعمل الجاد المستمر لبنيان الجدار الصلب للقوة المعنوية والحسية التى عن طريقها يتمكنون من عمل الواجب المطلوب لرفع شأن الأمة وتمكينها من العمل لإحياءِ العبادة لله وحده وطرح عبادة غير الله..

وليس المقصود من إبرام العهود هوالسلم الدائم أبداً وترك الناس يعملون مرادهم خلافاً لما ذهب إليه بعض كتاب السيرة إذ لو كان الأمر كذلك لابرمت العهود مع كافة مشركى العرب حين ظهور الإسلام وقوة جهاده وهيبته..

تقسيم العهود:

ورد في زاد المعاد لابن القيم تفصيلا جيداً لأهل العهود نورده هنا لنقف على أهم المسائل في ذلك.

قال: «وجعل أهل العهود في ذلك ثلاثة أقسام: قسما: أمره بقتالهم وهم الذين نقضوا عهده ولم يستقيموا له. فحاربهم وظهر عليهم.

وقسمًا: لهم عهد مؤقَت لم ينقضوه، ولم يظاهروا عليه، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم.

وقسمًا: لم يكن لهم عهد، ولم يحاربوه، أو كان لهم عهد مطلق، فأمره أن يؤجلهم أربعة أشهر، فإذا انسلخت قاتلهم وهى الأشهر الأربعة المذكورة في قوله تعالى: ﴿فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾.. وهى الحرُم المذكورة في قوله تعالى: ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرُم فاقتلوا المشركين..﴾.

فالحرُم ههنا هى الأشهر التسيير أولها يوم الإذن وهو اليوم العاشر من ذى الحجة، وهو يوم الحج الأكبر الذي وقع فيه التأذن بذلك وآخرها العاشر من ربيع الاخر، وليست هي الأربعة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللهِ اثناَ عَشَرَ شهْراً فى كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّموَاتِ والأَرْضَ مِنْها أَرْبَعةٌ حُرُم﴾. فإن تلك واحد فرد وثلاثة سرد رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ولم يسير المشركون

في هذه الأربعة فإن هذا لا يمكن لأنها غير متوالية، وهو إنما أجلهم مطلق أربعة أشهر؛ وأمره أن يتم للموافى بعهده عهده إلى مدتـه، فأسلم هؤلاءِ كلهم، ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم، وضرب على أهل الذمة الجزية، فاستقر أمرهم - أى الكفار - معه بعد نزول براءَة على ثلاثة أقسام.

١ - محاربين له.
٢ - أهل عهد.
٣ - أهل ذمة.

ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام فصاروا معه على قسمين:

١ - محاربين.
٢ - وأهل ذمة.

والمحاربون له خائفون منه، فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام:

١ - قسم مؤمن به.
٢ - ومسالم له آمن.
٣ - وخائف محارب[1].

وأنت ترى شيئاً مفيداً مما نقلناه عن ابن القيم وهو يغنى بنفسه عن نفسه:

مدة العهد:

لما كان الإسلام دين الحق ولم يأْت الأمر إرتجالاً ولم يلق الأمور

---

(١) زاد المعاد جـ ٢ ص ٧٠ و ٨٢ ط.. ث عام ١٣٦٩.

على علاتها فما من شيء كبر أو صغر إلا وقد رسم الإسلام له شيئاً لا يتعداه ترتيباً ونظاماً.

والعهـود ليست هينة فهى عهد بين المسلمين وعدوهم فإن لم يكن النظام والتحديد والالتزام فلا جرم يستهين العدو بالمسلمين وتضيع هيبتهم لذلك.

روى مروان ومسعود بن مخرمة أن النبى ﷺ صالح سُهيل بن عمرو بالحديبية على وضع القتال عشر سنين قال في المغنى: «إذا تبين هذا فإنه لا تجوز المهادنة مطلقاً من غير تحديد مدة لأنه يقضى إلى ترك الجهاد بالكلية ولا يجوز أن يشترط نقضها لمن شاءَ منهما لأنه يُفضى إلى ضد المقصود منها»[1].

عقد الهدنة:

جعل الإسلام لكل شيء رأسا ليتم الأمر وتسير الأمور بنظام ولكى يقوم العمل على شيء من التنظيم والمسؤلية.. وفي الحروب خاصة فيما يدور حول الأعداءَ كان للإمام أو نائبه أهمية كبرى لا يجوز تعديهما بحال.. والأعداءُ إذا رأوا الانصياع التام في المسلمين وأنهم مطيعُون ومتبعون ومتعاونون فإنهم حينئذ يتأكدون من انتصارهم عليهم فلعلهم يولوا مدبرين.

فعقد الهدنة لا يجوز القيام به إلا من قبل الإمام أو نائبه وكذلك عقد الذمة.. لأن هذا عقد مع جملة الكفار وليس ذلك لغير الإمام.. ولأنه يتعلق بنظر الإمام وما يراه من المصلحة وإذا عقده غير الإمام فإن هذا يعني تعطيل الجهاد[2]. وفيه افتيات على الإمام.. فإن هادنهم غير الإمام

---

(١) المغني جـ ٨ ص ٤٥٩.
(٢) المصدر السابق ص ٤٦١.

أو نائبه لم يصح[1] وإذا عقدت الهدنة ثم مات الإمام بعد عقده لها لم ينقض عهده. . وعلى من بعده الوفاء به.

وإذا عقد الهدنة لزمه الوفاء. . .

فإن نقضوا العهد جاز قتالهم لقوله تعالى: ﴿وإن نكثوا أيمانهم من بعـد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون﴾.

ولقوله تعالى: ﴿فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم﴾.

ولأن قريشاً لما نقضت العهد خرج إليهم فقاتلهم وفتح مكة وإن نقض بعضهم العهد دون البعض فسكت باقيهم عن الناقض ولم يوجد منهم إنكار ولا مراسلة الإمام ولا تبروءْ فالكل ناقضون[2].

يدل على ذلك مقاتلة الرسول ﷺ لقريش حيث أنهم أعانوا بنى بكر على خزاعة أحلاف الرسول ﷺ.

ولأن سكوتهم يدل على رضاهم وإلا لما سكتوا وكتمو ذلك وكما أن نقض العهد من البعض يدل على نقض عهد الكل فكذلك عقد الهدنة مع بعضهم يدخل فيه جميعهم لدلالة سكوتهم على رضاهم كذلك في النقض.

هَلْ يُرَدُّ اُلمعَاهَدُ إِذْا جَاءَ إِلَىْ اُلْمُسْلمينْ:ـ

المسلمون في كل زمان أصحاب قضية يجب أن يعبروا عنها ومن ثم فلا ضير عليهم إذا قيل عنهم ما يقال.

(١) المصدر السابق ٤٦٢.

(٢) وهذا القول هو الصحيح خلافا لبعض العلماء الذين لم يروا ذلك قياسا على عدم عموم العقوبة بالأخذ بالذنب.

والإسـلام جاءَ من عنـد الله فهو الحاكم وله الملك وهو المتصرف فأوامره تنفذ بحذافيرها وكذلك نواهي تجتنب. . .

وهنا قد وضع سبحانه وتعالى للمسلمين ما يمشون عليه ويتبعونه دون لجوءٍ إلى رأى أو حكم آخر ومن ذلك أن المعاهد إذ كان رجلا ثم جاءَ إلى المسلمـين فإنـه يُرد تنفيـذاً للعهـد وما لم يرد فهذا يعنى التلاعب بالعهود وعدم ثباتها.

أما المرأة فلا يجوز ردها للمشركين لقوله تعالى: «إذا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ إلى قوله: «فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ».

ومن هذا الأمر يجب أخذه والتقيد به.. ولعل الحكمة من عدم رد المرأة أنها عادة مغلوبة على أمرها وقد تُنتهك ويُتعدى عليها ثم هي أم أولاد فكون أولادها عند المسلمين يكون فيه من الخير ما لو لم يكن أولادها عند غيرهم ثم إن الله بأمره هذا يعلم ما لا يعلم الإنسان مهما بلغ من العلم.

مَتَى ينتقض العهد:

هناك نواقض للعهد متى ما انتهك شرط من الشروط ومتى ما حدث أحد النواقض فإنه يعنى دون كلام.. إن العهد المُبَرمْ قد زالت حرمته وذهبت من ثم قيمته وهذه النواقض إجمالا.

أولاً: إذا لم تُبذل الجزية.
ثانياً: إذا لم يلتزم الكتابي حكم الإسلام.
ثالثاً: إذا قاتل المسلمين أو تعدى على مسلمة بفاحشة.
رابعاً: إذا تعدى بقطع طريق.
خامساً: إذا سب الله أو رسوله أو كتابه أو دينه.

سادساً: إذا تجسس على المسلمين أو ساعد على ذلك.

سابعاً: إذا ظهر منه علامات متواترة بكذبه وخيانته أما أهله وأولاده فلا ينتقض عهدهم لأنهم لم يعملوا ما يجوز نقض عهدهم وإذا جاء مُسلما تائبا فإنه حينئذ يحرم قتله وذلك لقوله تعالى ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ ولما ورد عنه ﷺ أنه قال: «إن الإسلام يجبّ ماقبله»[1].
والعهود احترامها عظيم في هذا الدين ولا يجوز نقضها بحال إلا إذا حدث خلل يسيء اليها من وجه أو وجوه.

ولا ريب أن تفهم هذه الحقيقة تفهمًا تاماً يدرك معه المتفهم لها حقيقة هذا الدين وعظم أمره، والعهود صورة واضحة تعطي طالب العلم ومستفيد النظر طبيعة الإسلام في كيفية الوفاء بالعهد واحترامه وليس هذا فحسب بل كما ذكرنا فإن من يأتى مسلمًا يكون له مالنا وعليه ماعلينا، وإذا نحن نظرنا أمور الجهاد كافة فإن الوفاء بالعهد أمر قد قدم اعتباره تمشياً مع روح الشريعة وبثاً للإمانة ونشراً للعدل والرحمة والانصاف ونظرة أخرى إلى حال الأسير فإن الشريعة تنهى عن قتله أو تعذيبه فهذا ليس من طبيعة هذا الدين إنما الأسير هنا نصيبه أن يُحجز حتى لا يعين الكفار على قتال المسلمين فإذا وضعت الحرب أوزارها فإن الأسير في هذه الحال يعامل بأحد أمرين:

الأول : المن فيفك الأسير في هذه الحال دون مقابل ولا يكون هذا إلا إذا رؤي أن المصلحة العامة في فكة أو كان لا يملك من المال ما يستطيع به الافتداء.

الثاني: الافتداء والمقصود به فك النفس بنفس أخرى أي فك أسرى المشركين بأسرى المسلمين أو أن يدفع الأسرى فدية، وخلال مكوث الأسير في بلاد الإسلام فإنه يعامل معاملة كريمة لأن هذا الدين جاء

(١) هذا تمام حديث جاء في الصحيح من حديث: عمرو بن العاص.

لبث الأمانة والعدل ونشر التوحيد في الأرض وفك أسر الأنسان من هواه ونفسه ومما هو عليه من جهل متأصل جرته التربية والتقليد والمنشأ المخالف للحق(١).

وإذا كانت هذه طبيعة الشريعة الإسلامية في معاملة الأسرى فكيف تكون الحال فيما يخص الأرض التي يملكها المشركون بعد الفتح.

الحق أن نظر هذه الحال تُعتبر من لوازم التدوين ولوازم الخلود على كل حال نظراً لما تحتويه أحكام الشريعة الإسلامية من عدل ورحمة ونبين هنا كيفية الحاصل بعد الفتح لكى يستقر في الذهن وضع الأمر فنقول إن الامام مخير بين ثلاثة أمور:ـ

الأول: ترك الأرض لأصحابها(٢).

---

(١) جاء تفسير «الأسير» في القانون الدولى لأسرىٰ الحرب بأنه الذي يقع في يد الدولة المحاربة من صفوف الأعداء أو من يقوم بخدمة القوات المعادية كالعاملين في المواصلات والتموين وكذلك المتطوعين، وتعرف هذه العبارة بلائحة «لاهاي» واتفاقية جنيف سنة ١٩٤٩م.

وقد لوحظ أن القانون الدولى يحرم النيل من الأسرى سواء ما يتعلق في العرض أو التعذيب أو القتل وقد أوجبت لائحة محكمة «نور برج» أن معاملة الأسرى بتعذيب أو قتل أو قتل الرهائن أعتبرت ذلك جريمة ومن خلال هذا نستطيع القول بسبق الإسلام لمثل هذه اللوائح والقوانين الدولية وهذا جاء إلى هؤلاء نداءً من الفطرة فليتهم إذا أصغوا إليها أصغوا إليها وهي تنادى إلى الحق وتبين لهم أن الحق واحد وأن الإسلام هو: الحل لما هو حاصل اليوم بين بنى الإنسان في هذه الحياة، ومن المستحسن العودة إلى هذه اللائحة خاصة المادة ٢٢ و ٢٥ و ٢٦ و ٢٧.

(٢) في زاد المعاد: لابن القيم، والسيرة: لابن هشام جاء الكلام عن «فتح مكة». مطولاً فيرجع إليه هناك.

الثاني: أن يقسم الأرض بين الفاتحين[1].

الثالث: أن يتركها الامام في يد أهلها. ويأخذ منها الخراج[2].

وإذا.. فقه.. القارىء مراد هذا الدين من خلال الوقوف على الحكمة من مشروعية الجهاد في الإسلام أدرك أن الإسلام إنما جاء رحمةً للناس وجاء رسوله ﷺ بشيراً ونذيراً ورحيمًا. وإدراك الحكمة من وراء ماذكرنا يعطينا أن الناس بحاجة إلى ردهم إلى الحق قبل البعثه فكان هذا النبى رحمة من الله ومنةً وفضلاً وكيف أصبحت أمور الخلق بعد البعثة[3] بزمن يسير جداً، وحينما نقف على الطبيعة الحاصلة من وراء حقيقة الجهاد ونستعرض أمره نعلم دون نكير. أن الإسلام جاء بالعدل وجاء بأخوة المسلمين وجاء بلأمن العظيم ورد ما كان في الزمن الأول من القتل والنهب والاباحية الخ....[4].

والعهود. وشأن الأسرى. والأرض التى يملكها غير المسلمين ممن يقع معهم جهاد لادخالهم في دين الإسلام إنما هذه حالات ثلاث من حالات كثيرة تبين أن الإسلام إنما جاء لاخراج الناس من ظلام الجهل إلى نور الحق والعلم وإنما جاء ليكون الناس أمة مُسلمة واحدة حتى يرثوا الأرض ماداموا عابدين لله موحدينه دون سواه.

---

(١) في هذا الأمر نزاع بين كثير من أهل العلم لعل الأظهر لنا وما نميل إليه هو: الأول حيث قال ﷺ لأهل مكة «اذهبوا فأنتم الطلقاء» الخ...

(٢) الأرض التي يسلم أهلها تبقى لهم أرضهم وأموالهم.

(٣) زاد المعاد جـ ١/٢/٣/٤ تفسير: سورة محمد عن ابن كثير والشوكاني. ويرجع في هذا إلى: «عبقرية عمر» للعقاد. و «خالد بن الوليد» لمحمد الصادق عرجون.

(٤) أخبار العرب قبل الإسلام كثيرة عجيبة كتبت كثيراً في عدة كتب معروفة بهذا. كما أنها متناثرة في كتب التاريخ الإسلامي في بدايات الأجزاء الأولى.

حكم الجهاد في الاسلام

نتقل من كتب فقهاءِ هذه الأُمة حكمٍ الجهاد في الإِسلام ليتضح حكمه أَمام المسلم ليكون من ثم عاملاً حسب قدرته على العمل ومجاهداً حسب قدرته على الجهاد ولنطرح بالتالى عذر غير العاملين.

قال في: «بلغة السالك لأَقرب المسالك» وهو على مذهب مالك الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله سنة.. وفرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين ويتعين (أَى يصير واجباً عينياً كالصلاة) بتعيين الإمام، وبهجوم العدو على محلة قوم فيتعين على المرأة والرقيق مع هذه الحالة.. ولو منعهم المولى والزوج والسيد ورب الدين إن كان مديناً، ويتعين أَيضا بالنذر، وللوالدين منعه في فرض الكفاية فقط، وفك الأَسير من الحربيين إن لم يكن له مال يفك فرض كفاية وإن أَتى على جميع أَموال المسلمين» أ. هـ.

وقال في: «المنهاج» للنواوى ـ وهو على مذهب الشافعى كان الجهاد في عهد رسول الله ﷺ فرض كفاية وقيل عين.

وأَما بعده فالكفار حالان.

أَحدهما: يكونون ببلادهم فرض كفاية إذا فعله من فيهم من المسلمين سقط الحرج عن الباقين.

الثانى: يدخلون بلدة لنا فيلزم أَهلها الدفع بالممكن.. وإن أَمكن تأَهب لقتال وجب الممكن على فقير وولد ومدين عبد بلا إذن وقال في: «المغنى». لابن قدامة: وهو على مذهب الحنابلة الجهاد فرض على الكفاية إذا قام به قوم سقط عن الباقين ويتعين في ثلاثة مواضع.

١ ـ إذا التقى الزحفان وتقاتل الصفان حرم على من حضر الانصراف ويتعين عليه المقام.

٢ ـ إذا نزل الكفار ببلد تعين على أهله قتالهم ودفعهم.
٣ ـ إذا استنفر الإمام قوماً لزمهم النفير معه.

وقال في: «المحلى» لابن حزم: وهو على مذهب الظاهرية: والجهاد فرض على المسلمين، فإذا قام به من يدفع العدو ويغزوهم في عقر دارهم ويحمى ثغور المسلمين سقط فرضه عن الباقين وإلا فلا.

ولا يجوز إلا بإذن الأبوين، إلا أن ينزل العدو بقوم من المسلمين ففرضه على كل من يمكنه إعانتهم أن يقصدهم مُغيثاً لهم.. أذن الأبوان أم لم يأذنا إلا أن يضيعا أو أحدهما، فلا يحل له ترك من يضيع بعده». أ. هـ.

وكل هذه التعاريف والأحكام جامعة ومانعة إلا أن ابن حزم هو الأقرب إلى ما نميل إليه ونأخذ به.

وقد وردت أحكام عن الجهاد وجمل واسعة وأشياءَ لا تحصى في كثير من كتب الفقه الإسلامى والحديث لم نوردها لأن ما ذكرناه هُنا كافيا[١] ولم يخرج أحد من العلماءِ عن حدود المذكور، والمعنى يكادون يتفقون عليه.

وهذه كما هو معلوم فريضة الجهاد في سبيل الله تلك الفريضة التى فرضها الله سبحانه وتعالى وجعلها واجبة الأداءِ على المسلمين في كل زمان وفي كل مكان.

وقد بين سبحانه وتعالى أن وراءَ فريضة الجهاد الشاقة على النفوس حكمة عظيمة فإما النصر وإما الشهادة. وقد بذل المسلمون العاملون جهدهم لنيل درجة من هاتين الدرجتين. ودون التاريخ لهم ذلك وأدرك

(١)راجع: عمدة القاري. فتح الباري.. القرطبي.. المبسوط.

الناس خلال العهود كلها هذا منهم وتيقنوا صحة ذلك وعملوا مثل أعمالهم أو ما يقرب منها.

والجهاد في حقيقة أمره واجب على كل مسلم قادر مستطيع ليعود الإنسان إلى ربه ومولاه.

والحفاظ على الأمة الإسلامية والحفاظ على خيراتها واجب كذلك لا يمكن بحال أن يفرط فيه.

إن إيجاب الجهاد على كل قادر واستغلال المنصب والجاه من أجل ذلك واجب عيني يتهم كل إنسان يتهاون في ذلك بقول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله إثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل. إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليما ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير..﴾[1].

من هذه الآية العظيمة ندرك خطر القعود عن الجهاد وندرك كذلك عاقبة من لم يجاهد وهو قادر مستطيع متمكن. وندرك من هذه الآية شدة عاقبة الركون إلى الدنيا وتغليبها على العمل والجهاد والدعوة في كل الازمان.

والجهاد في هذا العصر أراه فرض عين على كل مُسلم لإدخال الناس في دين الله عن طريق الحكمة والموعظة الحسنة ويمكن لكل مُسلم أن يجاهد في سبيل الله في هذا العصر فلا عذر لمسلم في ترك الجهاد[2].

وليس الإثم بساقط عن أحدٍ ما دامت الأمة الإسلامية على حالتها

(١) سورة التوبة آية ٣٨، ٣٩.

(٢) الفتاوي الاسلامية. . تحت الطبع للمؤلف

الراهنة ولا يقتصر الجهاد على دون أحد ولا على أرضٍ دون أرض[1].

ولا يمكن للإسلام أن ينتشر إلا بالجد والصدق والإخلاص والمداومة المستمرة على الجهاد[2].

ولا يمكن للعمل أن ينجح إلا بالثقة التامة بالله والعمل من أجله ولعل الخطورة تكمن في مسألة الجهاد بأنه مُحاط ومُحدد ومجهول كذلك ولكن ما علينا فإن المسلم مُلهم: «واتقوا الله ويعلمكم الله».

---

(١) يراجع في هذا تفسير قوله تعالى: «واتقوا فتنة لا تصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصة». وقوله تعالى: «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة».

(٢) في حياة الرسول وحياة صحابته مثل كريم على ذلك. والذين جاؤا في هذا الزمان هم بخلاف ما عليه كل من سبق من سلف هذه الأمة قال تعالى. . «فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وان يأتهم عرض مثله يأخذوه الم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله الا الحق ودرسوا ما فيه والدار والأخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون».


الخاتمة

وبعد فقد بحثنا مسألة الجهاد وحاولنا فيه ما استطعنا القيام به تجاه هذه الفريضة العظيمة ولقد بذلنا جهداً هو جهد المقل وحسبك بانسان بين يديه مشاغل شتىٰ من هنا وهناك لكن كل هذا كان سهلاً بجانب نظر هذه الفريضة التى طال حولها الكلام خاصة «طبيعة الجهاد والغاية منه».

وبحث هذه المسألة رأيتها من لوازم المسلم فلست هي فرعية وليست بالتي يمكن تأخير نظرها أو محاولة التساهل حيالها في عصر قلَّ فيه العلم المبني على الفهم الصحيح وضعفت فيه الهمم للتحقيق والاستقصاء والطرح الكامل لكل مسألة تكون، وكما كنت قد ذكرت في كتاب «حال المهتم في مجلس القضاء» ط ٢، أن كثيراً من الرسائل التى تقدم أصحابها لأخذ الدكتوراه والماجستير فليس لأصحابها إلا مجرد النقل مع تغيير طفيف في المنقول ولهذا فإن كثيراً منها زخر بالأحاديث الضعيفة كما أنها تخلو غالباً من البحث العلمى المبنى على البحث الذاتى المتمكن.

ولست أدعى كمال هذه الدراسة لكنها اشارة مني إلى واجب ما عليه الحال في زمن يجب أن يفقه فيه.

معنىٰ الجهاد حسب ماهو مدون علمًا وفهمًا والجهاد أرى أنه يحتاج فهمه إلى الوقوف على مايأتى:

أولاً: معنىٰ دين الإسلام.
ثانياً: ما المراد بالجهاد.
ثالثاً: مراحل الجهاد.
رابعاً: نظر الآيات والأدلة من السنة الواردة في سورتى: براءة/ والانفال مع ما ورد في البقره والحج ومحمد.

خامساً: طبيعة الغزوات كيف كانت.

ولاشك أن نفهم هذه الأمور تفهمًا مكيناً يعطي حقيقة الحاصل من الجهاد في الإسلام ولا ضير من المناقشة والأخذ والعطى بين طلبة العلم متى ما كان الهدف الوصول إلى الحق والحق واحد ليس في هذا نزاع، والمطلع على كتابنا يجد أنه حاول مناقشة هذه المسألة بشيء من التوسع فيما يخص طبيعة الجهاد إذ أن هذه هى محط القول في هذه الفريضة على كل حال.

والحق أننى في هذه الطبعة ٤ لم أتعرض لشيء كان في الطبعة ٣ إلا مارأيت أنه من الثوابت فقد طرأ تغيير في المقدمة وكذا تغيير في عنوان «الجهاد في الإسلام بين الطلب والدفاع» وقد كان هذا العنوان على أحد الابواب داخل الكتاب فرأيت جعله «طبيعة الجهاد في الإسلام». واكتفينا بعنوان الغلاف عن ذلك العنوان إذ أن كلمة طبيعة هكذا أشمل من سواها.

وأضفت بعض ما حضرنى في أبواب متفرقة والكتاب هو هو لم يتغير أمره بحيث يفهم منه غير ماذهبنا إليه في الطبعات السابقة. وكل ماكنا نهدف إليه في هذه الدراسة وسواها محاولة منى ليس إلا بأن يقف المسلم على أرض صلبة لا يميل ولا يحيد عن الحق. ولعل جهاد النفس بصدق والمتابعة هي من أسباب صلابة النفس والروح على الحق ومالا أصل له قد ارتكز عليه فإنه يذهب في مهب كل ريح وهذا ما لا نريده وقد قال الشاعر الجاهلي قديمًا:

لا يبتنى البيت إلا له عمد ولا عمد إذا لم ترس أوتاد

وهذا ما حرص النبى ﷺ ابان الأيام الأولى حيث أسس عقولاً مليئةً بالإيمان وعامرة بالخوف والرجاء صادقة في الطلب وموقنة بأن ماهو كائن

يحصل في الحياة إذا قدر ذلك ولهذا آمنوا وعملوا وترجموا القرآن ترجمة حسيـة، وهذا ولا جرم أمر عظيم يدرك إذا علم المسلم حقيقة أمره ومبلغ شأنه في الحياة وبعد الممات، هذا ـ واستغفر الله العظيم من كل زلة وهفوة وهو حسبى ونعم الوكيل وصلى الله على نبيه محمد وآله وسلم.

المراجع

القرآن الكريم

فتح البارى — إبن حجر
عمدة القارىء — العيني
السنن — للترمذي
المستدرك — للحاكم
المنهاج — للنواوي
فتح القدير — الشوكاني
أحكام القرآن — القرطبي
المحلى — لابن حزم
المقنـي — لابن قدامة
زاد المعاد — لابن القيم
السياسة الشرعية — لابن تيمية
معجم مقاييس اللغة — لابن فارس
في ظلال القرآن — سيد قطب
تفسير ابن كثير — لابن كثير
آثار الحرب في الفقه الإسلامي — وهبة الزحيلي
رسالة الجهاد في سبيل الله — المودودى
حال المتهم في مجلس القضاء — لابن لحيدان
السيرة النبوية — لابن هشام

فقه الدعوة أحمد حسن
العقد الفريد لابن عبد ربه
تحفة الندوة أحمد غلام القادياني.
ترياق القلوب أحمد غلام القادياني.

الفهـرس



مطابع الفرزدق التجارية - الرياض
المـذر ٤٨٢٤٩٨٣ / ٤٨٢٤٨٦٥